1. فجأة الاستقلال

كان كأي صباح من صباحات يوم الإثنين في سنغافورة إلى أن توقفت الموسيقى. وفي العاشرة صباحاً أُوقفت فجأة موسيقى البوب في الإذاعة. وسمع جمهور المستمعين المذهول المذيع يقرأ بصوت رزين إعلاناً من تسعين كلمة غيّر حياة الناس في سنغافورة وماليزيا:

«لما كان من حق الشعب غير القابل للتصرف أن يكون حراً ومستقلاً، أعلن هنا، أنا لي كوان يو، رئيس وزراء سنغافورة وأصرح باسم الشعب وباسم حكومة سنغافورة، أن سنغافورة ستصبح منذ اليوم، التاسع من آب (أغسطس) من عام 1965، دولة مستقلة وديمقراطية ذات سيادة، قائمة على مبادئ الحرية والعدالة وتسعى دوماً لخير شعبها وسعادته في مجتمع أكثر عدالة ومساواة».

وعلى مسافة 250 ميلاً إلى الشمال في شبه جزيرة ماليزيا، كان تونكو عبد الرحمن يذيع إعلانه الخاص به، معلناً أن «سنغافورة لن تكون دولة ماليزيا وستكون دولة مستقلة وذات سيادة إلى الأبد وأمة منفصلة عن ماليزيا المستقلة، وتعترف حكومة ماليزيا بحكومة سنغافورة على أنها حكومة مستقلة ذات سيادة، ولسوف تعمل معها دوماً بصداقة وتعاون».

انفصال! ما كافحت من أجل تحقيقه بدأ يتلاشى الآن. لماذا؟ ولماذا بشكل مفاجئ هكذا؟ منذ سنتين فقط أصبحت جزيرة سنغافورة جزءاً من «اتحاد ماليزيا» الجديد (والذي كان يضم أيضاً المناطق الشمالية من أراضي بورنيو في ساراواك وصباح).

في الساعة العاشرة مساء من اليوم نفسه شرح تونكو أمام البرلمان في كوالا ـ لامبور عاصمة ماليزيا ما يلي:

«وجدنا في النهاية أن أمامنا طريقين مفتوحين فقط: اتخاذ إجراءات قمعية ضد حكومة سنغافورة أو زعمائها بسبب تصرف بعض قادتها، والإجراء الذي نتخذه الآن، أي الانفصال عن حكومة سنغافورة التي توقفت عن تقديم الولاء للحكومة المركزية».

استمع المجلس بصمت كامل، كان «التونكو» يقرأ لأول مرة قراراً قدمه تون عبد الرزاق، نائب رئيس الوزراء للمصادقة على مشروع دستور ماليزيا (تعديل سنغافورة) عام 1965 على الفور. وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر انتهت المداولة حول القراءة الثانية والثالثة، وأرسل مشروع القانون إلى مجلس الشيوخ. وبدأ مجلس الشيوخ قراءته الأولى في الساعة الثانية والنصف وأنجز القراءة الثالثة في الساعة الرابعة والنصف. وأعطى رئيس الدولة، يانغ دي ـ بيرتوان أغونغ، مصادقته الملكية في اليوم نفسه مستكملاً بذلك الشكليات الدستورية. وهكذا فُصلت سنغافورة.

بموجب تقليد مالايو الإسلامي فإن الرجل، وليس المرأة، هو من يستطيع إعلان «الطلاق» وبذا تُطلق المرأة. وبوسع الزوجين أن يتصالحا ويتزوجها الرجل ثانية، ولكن ليس بعد أن يطلقها ثلاثاً. ولقد كانت القراءات الثلاثة في مجلس البرلمان بمثابة ثلاث طلقات ما بين ماليزيا وسنغافورة. الشريكان ـ المالاويون في ماليزيا، والصينيون الذين يشكلون الأغلبية في سنغافورة ـ لم يكونا على اتفاق، فقد أفسد اتحادهما بنزاع زوجي حول ما إذا كان الاتحاد ينبغي أن يكون مجتمعا متعدد الأعراق حقاً، أم يكون مجتمعاً يسيطر عليه المالويون فقط.

كانت سنغافورة مهتمة بجوهر الطلاق لا بشكلياته الشرعية. إذا كان لا بد من الانفصال، وأردت أن أتأكد من أن تكون الشروط عملية ونهائية وقابلة للتنفيذ. ومن أجل التأكيد على ذلك بصورة نهائية فقد نشرت حكومة سنغافورة الإعلانين في صحيفة حكومية خاصة في ذلك الصباح. وقد طلبت ـ واستجاب تونكو ـ أن يكون الإعلان عن ذلك بتوقيعه الشخصي بحيث لا يكون ثمة عودة، حتى ولو لم

يوافق بعض الزعماء أو أعضاء البرلمان الماليزيون على ذلك. وقد استلم رامان، مدير إذاعة وتلفزيون سنغافورة هذه الوثائق من أمين سر مجلس الوزراء. وقرر أن تقرأ بالكامل باللغة المالوية، ولغة الماندرين، والإنكليزية، في القنوات الثلاثة المنفصلة وأن تعاد قراءتها كل نصف ساعة. وفي غضون دقائق كانت وكالات الأنباء قد نقلت الخبر برقياً إلى العالم.

بدأت نهاري يوم الإثنين التاسع من آب (أغسطس) بسلسلة من الاجتماعات مع مساعديّ الرئيسيين، ولاسيما أولئك الذين يعملون بموجب القانون الاتحادي، لإبلاغهم بأن الوزراء السنغافوريين هم الذين سيستلمون السلطة الآن. وقبل الساعة العاشرة بقليل، حيث كان من المقرر إذاعة الإعلان، قابلت أعضاء السلك الدبلوماسي في سنغافورة ممن كان يمكن جمعهم بسرعة أعلمتهم بانفصال سنغافورة واستقلالها، وطلبت الاعتراف بها من قبل حكمائهم.

وفيما كان يغادر الدبلوماسيون أخذت بيد نائب رئيس البعثة الهندية والقنصل العام (المصري) للجمهورية العربية المتحدة لتسليمهما رسالتين إلى كل من رئيس وزراء الهند شاستري والرئيس عبد الناصر. وكانت الهند ومصر آنذاك، بالإضافة إلى إندونيسية، من البلدان الرئيسية في الحركة الأفرو- آسيوية. وقد طلبتْ رسالتيّ اعترافهما وتأييدهما. وطلبت من الهند إرسال خبراء لتدريب الجيش، وكما طلبت من مصر إرسال خبير في بناء قوة دفاع بحرية.

وصلت قبل الظهر إلى استديوهات الإذاعة والتلفزة في سنغافورة من أجل مؤتمر صحفي. وفوجئت بنتيجة غير مقصودة وغير متوقعة. فبعد بضعة أسئلة افتتاحية والإجابة عنها، سأل أحد الصحفيين «هل لك أن تلخص لنا مجرى الأحداث التي أدت الى إعلان هذا الصباح؟» فاستعدت لقاءاتي مع تونكو في كوالا لامبور خلال اليومين السابقين وقلت:

«ولكن تونكو أوضح بسهولة أنه لا يوجد سبيل آخر، وأنه سيكون هناك الكثير من الاضطرابات إذا أصرينا على الاستمرار. وأود أن أضيف: أنت ترى في هذه اللحظة. أننا في كل مرة نسترجع تلك اللحظة أي عندما وقعنا هذه

الاتفاقية، التي فصلت سنغافورة عن ماليزيا نجدها لحظة ألم شديد، لأنني كنت أؤمن طوال حياتي باندماج ووحدة هذين القطرين. إنه شعب مرتبط بالجغرافيا، والاقتصاد، وبروابط القرابة والنسب.. فهل تمانع بأن نتوقف لفترة من الوقت؟».

وفي تلك اللحظة غلبتني عواطفي. ولم أستطع أن أستعيد رباطة جأشي أو استئناف المؤتمر الصحفي إلا بعد عشرين دقيقة.

لم يكن البث حياً: إذ لن يبدأ البث التلفزيوني إلا في الساعة السادسة مساء. فطلبت من رامان أن يحذف تسجيل الفترة التي انهرت فيها. ولكنه نصحني بخلاف ذلك تماماً. فالصحافة كما قال، مُلزمة بالإعلام عن ذلك، وإذا ما حُذف المشهد فإن وصفهم للمشهد سيجعل الأمور أسوأ وجدت رامان السكرتير الخاص، وهو مثقف من طبقات التأميل العليا ووفي لأهالي سنغافورة، مستشاراً ذكياً بارزاً. وأخذت بنصيحته. وهكذا رآني كثير من الناس في سنغافورة والخارج أفقد السيطرة على مشاعري. وفي تلك الليلة بث راديو وتلفزيون ماليزيا في كوالا لامبور مؤتمري الصحفي بما في ذلك المشهد المذكور. ولم يكن من المألوف بين الصينيين أن يفقد المرء رباطة جأشه. ولكنني لم أستطع تمالك نفسي. وكان لدي بعض العزاء من خلال تعاطف كثير من المشاهدين في بريطانيا وأستراليا ونيوزيلاندة معي ومع سنغافورة. كانوا مهتمين بماليزيا لأن قواتهم كانت تدافع عنها ضد «الجبهة» المسلحة، وهي التعبير المخفف الذي استخدمه الرئيس الأندونيسي سوكارنو لوصف حربه المحدودة غير المعلنة ضد الاتحاد «الاستعماري الجديد» المتسع.

كنت متوتراً عاطفياً بعد أن أمضيت ثلاثة أيام بلياليها بتجربة شديدة الوطأة. وبما أنني لم أنم إلا بضع ساعات قليلة منذ ليلة الجمعة في كوالا لامبور، فقد كنت على وشك الانهيار من الإعياء الجسدي. فشعرت بإحساس شديد بالذنب. وشعرت بأنني تخليت عن بضعة ملايين من البشر في ماليزيا: مهاجرين صينيين

وهنوداً وأوروبيين ـ آسيويين، وحتى بعض المالاويين. كنت قد أنعشت آمالهم، وكانوا قد انضموا إلى السكان في سنغافورة في مقاومة الهيمنة المالاوية، التي كانت السبب الجذري لنزاعنا. شعرت بالخجل لأنني تخليت عن حلفائنا ومؤيدينا لحماية أنفسهم، بمن في ذلك زعماء الحزب من ولايات ماليزيا الأخرى ـ الصباح، وساراواك وبيانغ وبيرك وسيلانغور ونيغري سيميلان. وكنا قد شكّلنا معاً «ميثاق التضامن الماليزي»، الذي كان يجمع وينسق نشاطاتنا لحشد الشعب من أجل تأييد مجتمع غير طائفي. وكنا قد شرعنا في إيجاد تحالف واسع يستطيع أن يضغط على حكومة «التحالف» الحاكمة التي كانت نفسها واقعةً تحت هيمنة «المنظمة الوطنية لاتحاد المالاويين» (umno) التابعة لتونكو.

كذلك كنت مفعماً بشعور الذنب والندم لأنني خدعت رؤساء وزراء بريطانيا، وأستراليا ونيوزيلاندة. ففي الأسابيع الثلاثة الأخيرة، وفي الوقت الذي كانوا فيه يمنحونني ويمنحون سنغافورة تأييدهم الكامل والقوي من أجل حل سلمي لمشكلات ماليزيا الطائفية، كنت أناقش سراً هذا الانفصال. جميع هذه الأفكار جالت في خاطري خلال الأسابيع الثلاثة من مفاوضاتنا مع عبد الرزاق، نائب التونكو. ومع استمرار معركة الإرادات كنت محافظاً على رباطة جأشي. ولكن ما إن وقع الحدث حتى تغيرت مشاعري.

في الوقت الذي كنت فيه مغلوباً على أمري كان تجار شاينا تاون في سنغافورة مبتهجين. منذ أطلقوا الألعاب النارية احتفالاً بتحررهم من الحكم الجماعي من جانب المالاويين في كولالامبور، وفرشوا الشوارع بكتل الورق الأحمر. وذكرت صحيفة «سين تشيو جيت بوه» الصادرة باللغة الصينية أن الناس قد أطلقوا المفرقعات النارية فرحاً بذلك اليوم العظيم، وقالت بغموض صيني معهود «لعلهم كانوا يتوقعون زهونغ يوان جي (احتفال الأشباح الجائعة)» وأضافت بعبارة مبهمة «في قلب كل فرد توجد صلاة خاصة به». وقالت نانيانغ سيانغ باو: «القلب يعرف دون أن يعلن عن ذلك».

رحّب رئيس «غرفة التجارة الصينية» في سنغافورة، سون بينغ يام، بصورة علنية بخبر انفصال سنغافورة عن ماليزيا. إذ ستجتمع لجنته في اليوم التالي لمناقشة رعاية احتفال مشترك باستقلال الجزيرة من جانب جميع المؤسسات والاتحادات التجارية والمؤسسات المدنية الأخرى وقال: «يشعر رجال الأعمال عامة بارتياح كبير للتطورات السياسية الأخيرة».

لم يشعر المستثمرون كذلك بما كنت أشعر به من غم. فالانفصال يُطلق فورة هائلة من النشاط في سوق الأسهم المالية في سنغافورة ـ ماليزيا، في كل من سنغافورة وكولا لامبور، ضعف حجم الصفقات في أكثر الأيام نشاطاً من الأسبوع السابق. وفي اليوم التالي قرر المستثمرون أن الاستقلال مفيد للاقتصاد، ولسوف يعطي عائدات أكبر. وارتفعت قيمة أسهم 25 شركة من أصل 27 شركة صناعية.

وعلى العكس من ذلك كانت الشوارع خالية في مركز المدينة بعد ظهر يوم 9 آب. وكنت قد أعلمتُ في الليلة السابقة جون لي كين مفوض شرطة سنغافورة، بالإعلان الوشيك، وسلمته رسالة من الداتو د. إسماعيل بن داتو عبد الرحمن، الوزير الاتحادي للشؤون الداخلية، أعلمه فيها بأن يأخذ تعليماته من حكومة سنغافورة في المستقبل. نشر لي كين وحدات الشرطة الاحتياطية والوحدات شبه العسكرية المدربة خصيصاً لمكافحة أعمال الشغب، وفي حال قيام النشطاء الموالون umno في سنغافورة بثورة احتجاج على الانفصال. إذ سرعان ما أحس الناس بالخطر بعد أن عانوا من تجربتين دمويتين في عمليات شغب ما بين الملاويين والصينيين في العام الماضي 1964. ومما شجع على الحذر وجود قوات مكافحة الشغب بعرباتهم الخاصة المجهزة بخراطيم المياه والنوافذ المغطاة بالشبك ومضادات الرياح التي تحميهم من القذائف. وقرر كثيرون أن يغادروا مكاتبهم ويعودوا إلى منازلهم في وقت مبكر.

كان النهار حاراً ورطباً كما هو الحال في شهر آب. ولكن عندما برد الطقس في المساء أحسست بالقلق. ولكنني صممت على متابعة عملي اليومي كي أزيح عن نفسي القلق. فقد أمضيت أكثر من ساعة وأنا أضرب 150 كرة من كرات

«الغولف» أمام (سري تيماسيك)، مقر إقامتي الرسمي على أرض إستانا (مقر الحكومة سابقاً. وهذا ما جعلني أشعر بأنني أحسن حالاً وقد فتح شهيتي على الطعام قبل لقائي مع الفيزكونت هيد المبعوث البريطاني العالي في كوالا لامبور.

تلقى سكرتيري مكالمة هاتفية من مكتب أنطوني هيد في ذلك الصباح في تمام الساعة التاسعة والنصف، ولما لم يكن هناك إلا ثلاثين دقيقة فقط على إذاعة الإعلان، فقد أخبرني أنه لا يستطيع أن يأتي على الفور. وطلب مني أن يكون الموعد بعد ظهر ذلك اليوم إن أمكن. فبعثت إليه برسالة أخبره أن الموعد في الساعة الثامنة مساء.

وفي الساعة السابعة والنصف مساء وصل سري تيماسيك (وكنت لأسباب أمنية غير متواجد في منزلي في شارع أوكسلي) لتستقبله ابنتي وي لينغ، التي بلغت العاشرة من عمرها، بقميصها وبنطالها القصير.

وسألتْ اللورد هيد: «هل تريد أن تقابل والدي؟».

كان استقبالاً مناسباً غير رسمي. إذ مع إعلان الاستقلال أصبحت علاقتي معه فجأة ملتبسة أو غير محددة. قد وصلت إلى الرواق في الوقت المحدد لاستقباله وهو يخرج من السيارة، فسألته «باسم من تتكلم؟».

أجابني: «حسناً، أنا مُعتمد، كما تعلم، لدى حكومة أجنبية».

«هذا صحيح. ولكنْ هل لديك التفويض للتحدث معي حول علاقة سنغافورة مع بريطانيا؟».

«لا»

«إذن فهذه محادثة شخصية ـ مجرد محادثة- غير رسمية»

«إذا أردت أن تكون كذلك».

وكانت كذلك بالفعل. وعندما وصفت هذا اللقاء لمجموعة من الصحفيين والبريطانيين والأوستراليين الأجانب في وقت لاحق من هذا الشهر. حاولت بأن أترك انطباعاً بأن الحديث قد كان مجابهة بين خصمين. والحق أنني بقيت

متضايقاً من اللقاء طوال الوقت. فالجلسة معه أثّرت فيَّ. فسلوكه كان جديراً بضابط متخرج من «ساند هيرست» فقد كان وزيراً للدفاع أثناء الغزو البريطاني ـ الفرنسي للسويس عام 1956، واستقال مع أنطوني إيدن وتحمل مسؤولية الهزيمة الكاملة. كان ينتمي إلى الطبقة العليا في بريطانيا، ويتحلى بالثبات والصلابة.

حاول جهده كي يمنع هذا الانفصال، كما بذل قصارى جهده ليجعل التونكو والحكومة الاتحادية تتبنى سياسات يمكن أن تعزز الوحدة مع ماليزيا. ولقد منحني، بوصفه المبعوث السامي البريطاني ذا الصلة المباشرة مع التونكو ووزرائه، ومع رئيس الوزراء في بريطانيا هارولد ويلسون، دعماً كاملاً من أجل حل دستوري للنزاع بين كوالا لامبور وسنغافورة. وأصروا، بنجاح، على ضرورة عدم استخدام القوة. ولو لم يفعلوا ذلك لكان يمكن للنتيجة أن تكون مختلفة. ولو لم يكن الانفصال بالتأكيد الحل الذي عملوا من أجله بعناء.

ولكن على الرغم من وجود 63 ألف موظف بريطاني، وحاملتي طائرات، و80 سفينة حربية، وعشرين سرباً من الطائرات في جنوب شرق آسيا للدفاع عن (الاتحاد) لم يستطع التغلب على قوة «الاشتراكية المالاوية». فالقادة المالاويون، بمن فيهم التونكو، كانوا يخشون إذا ما شاركوا في السلطة السياسية الحقيقية مع غير المالاويين فسيغلبون على أمرهم. تلك كانت النقطة الأساسية الحاسمة في المسألة. ولكن هيد لم يفهم ذلك.

كذلك أنا في البداية، ولكنني بدأت أدرك الأمور قبله لأنني أمضيت وقتاً طويلاً في التعامل مع التونكو، ورزاق وإسماعيل. وأنا أتحدث اللغة المالاوية أما هيد فلا. كما كنت أستطيع أن أتذكر أحداث الخلافات والمنافسة ما بين الملاويين وغير المالاويين من ماضيّ، ولاسيما أيام الدراسة في (كلية رافيلز) في عامي 1940 و1941 كنت أعرف المالاويين بصورة أفضل. لذا عندما قرأت في نهاية حزيران 1965 أنه قد ذهب إلى لندن شككت في أن يكون قد توصل إلى اتفاق ما.

استمر لقائي مع هيد قرابة ساعة، ولكن كيف يسعني أن أشرح له، بعد لقائي وجهاً لوجه مع رزاق في 29 حزيران في مكتبه في كوالا لامبور، أنني لم أجد إلا أملاً ضئيلاً بحل سلمي لمشكلاتنا؟ كنت أنا وهيد مقيدين متحفظين في تبادلنا للآراء. لم يوجه أية اتهامات، ولكن عبّر فقط عن أسفه لأنني لم أطلعه أو أطلع حكومته على ما حدث. من جانبي، كنت حزيناً للغاية لإخفائي عنه التطورات الأخيرة في الأسابيع الثلاثة الماضية والتي انتهت بالانفصال. وأظن أنه كان حزيناً بدوره. ولكنني لو كنت أخبرت هيد أن التونكو يريدنا أن ننفصل عن ماليزيا، رغم أنني كنت أريد اتحاداً أقل ارتباطاً وأكثر حرية، لوجد وسيلة لإيقاف التونكو لأنه ليس من مصلحة بريطانيا أن تنفصل سنغافورة وتستقل. ولو حدث ذلك لما كان بالإمكان السيطرة على أعمال العنف العرقية. وبعد 17 ساعة من لقائنا اعترفت الحكومة البريطانية بسنغافورة المستقلة.

بعد مغادرة هيد أجريت مناقشات لا حصر لها على الهاتف مع زملائي من الوزارة للتداول في تطورات الأمور. كنت أريد خوفاً من وقوع انشقاق داخل مجلس الوزراء وبين أعضاء البرلمان، أن يوقع كل وزير على «اتفاقية الانفصال» لأنني كنت أعرف أن كثيرين منهم قد يعارضونها بضراوة.

ولكن كان عليّ أن أدير حكم هذه السنغافورة الجديدة. كنت قد أمضيت جلّ وقتي ذلك النهار مع زميلي الحميم جوه كينغ سوي. وقررت أن أدمج وزارة الداخلية مع وزارة الدفاع، وأن يكون هو مسؤولاً عنها. ولكن عندئذ من يستطيع تولي وزارة المالية؟ واتفقنا على أن يكون الوزير هو ليم كيم سان. وكانت المشكلة الثانية الاعتراف الدولي والعلاقات الطيبة مع أولئك الذين يستطيعون أن يساعدوا على توفير الأمن لنا والبقاء. واتفقنا على أن يتولى س. راجاراتنان، العضو المؤسس في حزبنا (حزب العمل الشعبي) (pap) وزارة الخارجية. كنا في حالة دوار، ولم نتكيف بعد مع المواقع الجديدة ونخشى من الأمور غير الموزونة بدقة مستقبلاً.

كنا نواجه مستقبلاً كئيباً. فقد كانت سنغافورة والملايو مندمجتين من خلال ممر عبر (مضائق جوهور) وكانت تحكمهما معاً كأرض واحدة بريطانيا. كانت المالايو المنطقة الخلفية لسنغافورة، كما كانت مناطق بورنيو وساراواك وبروني وصباح. جميعها كانت أجزاء من الإمبراطورية البريطانية في جنوب شرق آسيا، حيث كانت سنغافورة بمثابة المحور الإداري والتجاري. الآن أصبح على أرضنا، ولم يعد بوسع حكومة ماليزيا أن تلقي علينا الدروس، أو أن توبخنا لعدم الانصياع للقواعد والممارسات التي تناسبها. ومن الممكن أن نتوقع أن يلغوا دورنا باعتبارنا المنفذ التقليدي لوارداتهم وصادراتهم، والمزود لهم بكثير من الخدمات.

في عالم تكثر فيه الدول الجديدة والتي تسعى جميعها لتحقيق مصالحها القومية والاقتصادية، بل وجميعها تريد أن تقوم بكل شيء بنفسها وأن تتعامل مباشرة مع المشترين منها أو البائعين لها سواء في أوروبا أم أمريكا أم اليابان، فكيف يتسنى لسنغافورة أن تبقى بدون أرض تزود غيرها بالمؤن؟ كيف كان بوسعنا أن نحيا حقاً؟ حتى مياهنا تأتي من الدولة الماليزية المجاورة. أتذكر تماماً كيف أمسك الجيش الياباني، في بداية شباط 1942، بخزاناتنا المائية هناك، الأمر الذي أحبط معنويات المدافعين البريطانيين، رغم أنه كان مايزال لديهم بعض الخزانات المائية في سنغافورة.

بعض الدول ولدت مستقلة، وبعضها حققت الاستقلال. أما سنغافورة فقد فرض الاستقلال عليها لقد احتفلت قرابة 45 مستعمرة بريطانية بانتقال السلطة إليها من بريطانيا الإمبريالية إلى حكوماتها الوطنية. أما بالنسبة لسنغافورة فإن 9 آب 1965 لم يكن مناسبة احتفالية. إذ لم نسع أبداً إلى الاستقلال. ففي استفتاء جرى قبل ثلاث سنوات صوّت 70% من المقترعين لصالح الاندماج مع ماليزيا. ومنذ ذلك الحين لم تتغير حاجة سنغافورة في أن تكون جزءاً لا يتجزأ من الاتحاد في دولة سياسة واجتماعية واقتصادية واحدة. لم يتغير شيء ـ عدا عن أننا كنا مُبعدين. كنا نقول: إنْ كانت سنغافورة مستقلة فهي ببساطة غير

قابلة للحياة. ومهمتنا الآن التي لا نُحسد عليها أن نجعلها قابلة للحياة. كيف يسعنا أن نخلق دولة من مجموعة متعددة اللغات ففيها مهاجرون من الصين، والهند وماليزيا، وإندونيسية وأجزاء أخرى عديدة من آسيا؟

سنغافورة جزيرة صغيرة مساحتها 214 ميلاً مربعاً على المد المنخفض، وقد انتعشت لأنها كانت في قلب الإمبراطورية البريطانية في جنوب شرق آسيا ومع الانفصال أصبحت قلباً بلا جسد. 75% من سكاننا والبالغ عددهم مليونين، كانوا من الصينيين، أقلية ضئيلة في أرخبيل من 30 ألف جزيرة يقطنها أكثر من100 مليون مسلم من الملايو وإندونيسية. كنا جزيرة صينية في بحر ملايو. كيف يسعنا أن نحافظ على بقائنا وسط هذه البيئة المعادية؟

ليس ثمة شك حول العداء. ومن أجل أن تزيد متاعبنا صعّد الأندونيسيون (مجابهتهم) العدوانية ضد ماليزيا عندما وجدت في أيلول 1963، حرب محدودة تضمنت المقاطعة الاقتصادية، وأعمال إرهاب يقوم بها فدائيون (كوماندوز) يتسللون إلى سنغافورة لتفجير القنابل والغارات العسكرية التي تتضمن إنزال قوات في جوهور بالمظلات. كان الصينيون في ماليزيا وسنغافورة يعرفون أن الحكومة الإندونيسيا ضدهم رغم وجود 3 ملايين مواطن من أصل صيني يعيشون على أرضها.

وفي غضون ذلك لم يواجه المركز التجاري، الذي اعتمدت عليه سنغافورة منذ إنشائها عام 1819، مستقبلاً تكتنفه الشكوك فحسب، بل إن أهميتنا الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا، للإمساك بالإمبراطورية، كانت تتلاشى مع انحلال الإمبراطورية. فاقتصاد سنغافورة يتعرض لمخاطر شديدة جراء أي زوال مفاجئ للحضور البريطاني. فقد كانت نفقات الدفاع البريطاني في سنغافورة تصل إلى ما يقارب 20% من ناتجنا القومي العام، وكان وجودهم العسكري يوفر وظائف لثلاثين ألف عامل بصورة مباشرة، كما يوفر مساعدات غير مباشرة لقرابة عشرة آلاف شخص، بالإضافة إلى الآخرين الذين يقدمون خدمات

مختلفة. وقد أوجدوا فرص عمل لما يزيد على 10% من قوة العمل في البلاد في وقت بلغ فيه معدل النمو السكاني % 2.5 في السنة، مما كان يلقي على عاتق الحكومة ضغطاً كبيراً من أجل إيجاد فرص عمل، بالإضافة إلى خدمات التعليم والصحة والإسكان.

ولكن بالنسبة إلى هذه اللحظة فإنني أشعر بالامتنان والراحة لأننا مررنا بذلك اليوم بدون اضطرابات. ذهبت إلى الفراش بعد منتصف الليل متعباً ولكنني لم أكن أشعر بالنعاس. ولم أسقط من الإعياء إلا في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، إذ أصحو قلقاً من وقت إلى آخر لأن عقلي الباطن يفكر في مشكلاتنا. كيف أستطيع التغلب عليها؟ لماذا وصلنا إلى هذا الوضع المؤسف؟ هل كان ما حصل هو النتيجة النهائية بعد أربعين سنة من الدراسة والعمل والنضال؟ ماذا يحمل المستقبل لسنغافورة؟ لسوف أمضي السنوات الأربعين القادمة أفكر في إيجاد إجابات لهذه الأسئلة الصعبة.

2. النشأة

تعود بي ذكرياتي المبكرة والحية إلى إمساكي من أذني فوق بئر في رقعة أرض فسيحة تحيط بالبيت الذي كنا نعيش فيه، والذي يقع فيما يُعرف الآن (بشارع تيمبيلينغ) في سنغافورة. كنت آنذاك في الرابعة من العمر.

كنت مولعاً بالعبث وقد كسرت جرة ثمينة من مجموعة والدي الخضرا المتألقة. كان والدي حاد الطبع، ولكن غضبه في تلك الأمسية وصل إلى الذروة. فقد حملني من مؤخرة عنقي من المنزل إلى هذا البئر وأمسك بي فوقه. كيف لم تتمزق أذناي وهو يؤرجحني فوق ذلك البئر؟ بعد خمسين سنة قرأت في مجلة Scientific American (المجلة العلمية الأميركية) مقالة تشرح كيف أن الألم والصدمة يحرران الوريد العصبي في الدماغ، فتطبع التجربة الجديدة في خلايا الدماغ وبذا تنطبع التجربة في الذاكرة بحيث يظل المرء يتذكرها لفترة طويلة بعد ذلك.

ولدت في سنغافورة في 16 أيلول عام 1923 في دارة كبيرة ذات طابقين في شارع كامبونغ جافا ـ 92. وكان عمر أمي، تشوا جيم نيو، آنذاك 16 عاماً، أما والدي، لي تشين كون فكان في العشرين من عمره. وكان والدهما قد رتبا زواجهما قبل سنة، ولا بد أن كلا العائلتين فكرت بهذا الزواج على أنه عمل ممتاز لأنهما بعد سنة زوّجتا شقيقة والدي الصغرى إلى شقيق والدتي الأصغر.

كان والدي ابن رجل غني. وقد اعتاد أن يتباهى بذلك أمامنا عندما كان شاباً، وقد سمح له والده بحساب لا حدود له في مخزني روبنسون وجون ليتيل، وهما أكبر محلين تجاريين في (رافليز بليس) حيث كان يشتري بذلك الحساب كل ما يروق له من ألبسة ومقتنيات أخرى. درس الإنكليزية في معهد سانت جوزيف، وهو مدرسة تبشيرية كاثوليكية أنشأها الأخوان دي لاسيل عام 1852. وقال: إنه

حصل على شهادة المدرسة الدنيا بعد أن أنهى تعليمه الرسمي ـ من دواعي أسفه وأسف والدتي. ولما كان بدون اختصاص فإنه لم يحصل إلا على وظيفة أمين مستودع في (شركة شل للنفط) بعد أن ضاعت ثروة الأسرتين في «الكساد الكبير». بدأ تاريخ أسرتي في سنغافورة مع جدي الأكبر من جهة أبي، لي بوك بون «الهاكا» والهاكا (Hakka) هم صينيون من الهان من السهول الشمالية والوسطى في الصين الذين هاجروا إلى فوجيان، وغواندونغ، ومحافظات أخرى في الجنوب وكان ذلك قبل ما يتراوح بين 700 وألف سنة الماضية، ولما كان مجيئهم متأخراً فلم يجدوا سوى أن يحشروا أنفسهم في مناطق جبلية قاحلة غير مأهولة بالسكان المحليين. ووفقاً لما جاء على شاهدة القبر الذي شيده خلف البيت الذي بناه في الصين، فإن لي يوك بون ولد عام 1846 في قرية تانغكسي، التابعة لمقاطعة دابو في غواندونغ. ثم هاجر إلى سنغافورة على متن سفينة شراعية صينية. ولا يُعرف عنه الكثير إلا بعد عام 1870 عندما تزوج فتاة صينية، تدعى سيو هوان نيو، مولودة في سنغافورة من والد من الهاكا عنده دكان.

وفي عام 1882 رأى أنه قد جمع ما يكفي من المال ليعود إلى قرية الأجداد في الصين، وبنى بيتاً كبيراً ونسب نفسه إلى طبقة عليا. ولكن زوجته رفضت أن تغادر أسرتها في سنغافورة وتذهب إلى مكان لم تره من قبل. ووفقاً لما يقوله جدي الذي كان آنذاك في العاشرة، فإن الأطفال وأمهم ذهبوا للاختفاء في بيت عائلة الأم في شارع (أه هود) وعاد لي بوك بون وحيداً إلى الصين. وهناك تزوج ثانية، وبنى لنفسه بيتاً واسعاً، كما اشترى بستاناً صغيراً. وأرسل إلى سنغافورة صورة له في بستانه وبيته الذي بني على الطراز الصيني مع باحة واسعة وأسقف رمادية اللون. وقد ضاعت صورة المنزل ولكن صورة جدي ما تزال موجودة.

ولد جدي، لي هون ليونغ الذي كنت أدعوه كونغ؟ أو جدي باللغة الصينية؟ في سنغافورة عام 1871، ووفقاً لرواية والدي فقد درس في «معهد رافلز» حتى مستوى الصف الخامس، أي ما يعادل اليوم المرحلة الإعدادية، وأخبرني هو نفسه

أنه كان يعمل بائعَ أدوية (صيدليٌّ غير متخصص) عندما ترك المدرسة، ولكن بعد بضع سنوات أصبح موظفاً مسؤولاً في سفينة تبحر بين سنغافورة وشرق الأنديز الهولندية. وكانت السفينة إحدى سفن أسطول تمتلكه شركة هيب إنغ موه للملاحة، والتي كان يملكها ملك السكر في جافا المليونير أوي تيونغ هام.وفي أثناء رحلاته تزوج من جدتي، كوليم نيو، في سيمارانغ، وهي مدينة وسط جزيرة جافا. وثمة وثيقة بالهولندية يعود تاريخها إلى 25 آذار (مارس) 1899، صادرة عن محكمة أورفان في سيمارانغ تشهد بزواج كوليم نيو، وهي في السادسة عشر من عمرها، من لي هون ليونغ البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً. وتثبت المصادقة على تلك الوثيقة أن الزواج تمّ في السادس والعشرين من آذار (مارس) 1899 وولد أبي في سيمار انغ عام 1903، في الأنديز الشرقية الهولندية. ولكنه بريطاني الجنسية بالنسب، لأن والده ـ كونغ ـ كان من سكان سنغافورة. وكان كونغ قد أحسن صنعاً بإحضار زوجته وولده إلى الجزيرة بعد ميلاد الطفل.

نمت ثروته بكسبه لثقة أوي تيونغ هام، الذي عيّنه نائباً عنه في إدارة شؤونه في سنغافورة. وقد أخبرني كونغ كم كان موضع ثقة، إذ أنه تبرع على مسؤوليته بمبلغ 150 ألف دولار، وهو مبلغ ضخم في تلك الأيام، من حساب أوي لتأسيس «كلية رافليز».

لم يكن ثمة مجال للتساؤل حول مدى حبي لجدي وإعجابي بوالدي. فقد كان جدي يحبني ويرعاني أما والدي، الذي يفرض الانضباط في الأسرة، فقد كان صارماً في معاملتي. وكان جدي قد حقق ثروة طائلة، أما والدي فهو مجرد ابن رجل غني لا يملك الكثير لنفسه.

عندما انخفضت ثروة العائلة أثناء فترة (الكساد الكبير) التي سببت انهياراً في قيمة المطاط من 80 سنتاً لكل أونصة إلى ما يقارب 20 سنتاً ما بين عامي 1927 و1930، لحق بكونغ ضرر كبير. إذ لا بد أن حسه التجاري كان دون مستوى والد أمي، تشوا كيم تينغ. على أن ثروة تشوا تعرضت بدورها للضرر لأنه استثمر

أموالاً في مزارع المطاط وضارب في أسواقه. ولكن كان لديه أملاك عقارية أيضاً، ويمتلك أسواقاً ومتاجرَ لذا لم يفلس كما حدث مع كونغ. وهكذا انتقل والدي عام 1929 من منزل كونغ إلى منزل تشوا الواسع في تيلوك كوراو.

كان كونغ غربي الطابع جداً، نتيجة للسنوات التي أمضاها مسؤولاً عن الحسابات على متن السفن مع قباطنة وضباط ومهندسين مسؤولين بريطانيين. وقد اعتاد أن يقص عليّ تجاربه وقصصاً حول صرامة النظام على متن السفن. ومن ذلك على سبيل المثال أنه بالرغم من الحرارة والرطوبة في المناطق المدارية كان القبطان والضباط الآخرون، وهم يرتدون ملابس قطنية بيضاء أثناء الطعام، ينظفون الصحون وأدوات الطعام. فقد تركت لديه خدمته مع الضباط البريطانيين انطباعاً دائماً بالتزام النظام والصرامة والكفاءة.

وعندما ولدت شاورت أسرتي صديقاً خبيراً لاختيار اسم ميمون لي. واقترح اسم (كوان يو) والذي يعني (النور واللمعان). ولكن إعجاب جدي بالبريطانيين جعله يضيف «هاري» إلى اسمي، لذا صار اسمي: (هاري لي كوان يو). كما أضيف إلى اسمي أخوي الأصغرين: كيم يو، وثيام يو اسمين مسيحيين؟ دينيس وفريدلي على التوالي. وفي ذلك الوقت كان قليل من الصينيين غير المسيحيين يفعل ذلك، وفيما بعد في المدرسة وجدت نفسي غريباً باسم شخصي مثل (هاري) وعندما ولد أخي الأصغر سيوان عام 1933، ألححت على والدي ألا يضيفا على اسمه اسماً مسيحياً لأننا لسنا مسيحيين.

على الرغم من أن كونغ قد فقد الأموال التي كانت تؤهله كي يعيش ويلبس بطريقة مواكبة للعصر. فقد ظلّ يحتفظ ببقايا ثروة قديمة، بما في ذلك بعض قطع الأثاث الأنيقة المستوردة من إنكلترا والتي تعود إلى عام 1910 وكان بالإضافة إلى ذلك خبيراً في المآكل والخمور. كان تناول الطعام معه متعة. وكانت جدتي طباخة ماهرة، تجيد تحضير اللحم المشوي (الستيك) مع قطع البطاطا المقلية، وهي أكلة كانت تعجب كونغ إعجاباً خاصاً. وكان انطباعي عنه أنه رجل شق طريقه في الحياة. وعرف كيف يعيش حياة هانئة.

بعد عودته إلى دابو، مقاطعة غواندونغ عام 1882 والد جدي لي بوك بون في ثوب كينغ الرسمي درجة 7.

جدي كونغ لي هون يونغ، المحب لبريطانيا، في لباسه الكامل في مناخ استوائي.

كان نقيض جدي من والدتي تماماً. فلم يتمتع تشوا كيم تينغ بدراسة الإنكليزية رسمياً ولم يُتح له أن يختلط بقباطنة بريطانيين أو تجار سكر صينيين أثرياء. إذ ولد في سنغافورة عام 1865 لأسرة صينية جاءت من مالاكا. نشأ ثرياً من خلال عمله الدؤوب وعيشه المقتصد. وتوظيفه نقوده في استثمارات ذكية في مجال العقارات وتجارة المطاط.

تزوج ثلاث مرات. توفيت زوجتاه الأولى والثانية، والثالثة كانت جدتي، نيو آه سون، وهي سيدة ضخمة الجثة من من بونتياناك في بورنيو الهولندية، وتتحدث بلهجة (الهاكا) والمالاوية والإندونيسية. وعندما تزوجت تشوا كانت أرملة شابة ولها ولدان من زوجها الأول، الذي توفي بعد ولادة الابن الأصغر مباشرة. ولدتْ من تشوا سبعة أطفال قبل أن تتوفى في عام 1935. وتوفي عام 1944 أثناء الاحتلال الياباني لسنغافورة.

كانت والدتي أكبر الأولاد من هذا الزوج، وعندما تزوجت عام 1922، وكانت في الخامسة عشر من عمرها، كانت ثروات الأسرتين ما تزال في حالة جيدة. فقد جلبت معها جزءاً من نصيبها في الميراث، عبدة صغيرة السن كانت مهمتها، بالإضافة إلى أشغالها الأخرى، أن تساعدها في الاستحمام وتغسل لها قدميها وتحضر لها حذاءها. ومثل هذه الرموز التي تدل على التراث اختفت بعد أن أصبحت أعي ما يدور حولي وأنا في سن الرابعة أو الخامسة من العمر، لكن ذكريات الأوقات المفضلة ما تزال محفوظة في صور لي ـ طفل يرتدي ملابس مستوردةً من بريطانيا أو يجلس في عربة أطفال غالية الثمن. كان بيت تشوا في تيلوك كوراو بيتاً واسعاً من الخشب والقرميد، وكان يعيش فيه مع جميع أولاده من زوجته الثالثة، فأمي، بوصفها الابنة الكبرى، مع والدي، وخمسة أولاد تحتل غرفة نوم واسعة، كان بيتنا واسعاً تغمره السعادة. نعيش جميعاً معاً بانسجام مع مماحكات بين حين وآخر حول أمور تافهة. وهكذا نشأت مع إخوتي الثلاثة وأختي الوحيدة وسبعة أبناء عم في البيت نفسه. ولكن لما كانوا جميعاً أصغر مني كنت ألعب غالباً مع أولاد صيادي السمك الصينيين والمالاويين الذين يعيشون في أكواخ قريبة ذات سقوف من الخشب أو التوتياء، وكان هؤلاء الصيادون يعملون على طول شاطئ (سيغلاب) على امتداد 200 ياردة.

صورتي في سن الرابعة في عرس عمتي التي كانت ترتدي الزي التقليدي لتلك الفترة.

كان عالماً بسيطاً كنا نلعب بالطائرات الورقية، والصوف، بل ونحاول اصطياد الأسماك. وقد زرعت فينا تلك الألعاب روح القتال والرغبة في الانتصار. ولا أدري ما إذا كانت تلك الألعاب قد هيأتني للمعارك التي خضتها فيما بعد في عالم السياسة. لم نكن رقيقين ولا مدللين. ولم يكن لدي عندما كنت طفلاً صغيراً الملابس والأحذية الفاخرة كتلك التي يرتديها أحفادنا اليوم.

لم نكن فقراء، ولكن لم يكن لدينا ألعاب كثيرة، ولم يكن هناك تلفزيون. لذا كان علينا أن نكتسب سعة الحيلة ونستخدم خيالنا. كنا نقرأ وهذا أمر جيد لتحصيل الثقافة، ولكن لم يكن من المتوفر آنذاك إلا القليل جداً من الكتب المصورة، وهذه كانت باهظة الثمن، كنت أشتري كتب قصص الرعب الرخيصة وقصص المغامرات لأولاد غريغريرز ـ هاري دارتون وبيلي بانتر ورفاقهما. كنت أنتظر بفارغ الصبر وصول سفينة البريد من بريطانيا التي كانت تأتي إلى رصيف تانجونغ باثمار كل يوم جمعة حاملة معها المجلات والصور، ولكنها لم تكن رخيصة الثمن بدورها. وعندما كبرت قليلاً رحت أتردد على «مكتبة رافيلز» حيث يمكن استعارة الكتب لمدة أسبوعين في ذلك الوقت. كنت أقرأ بشغف ولكنني كنت أفضل القصص التي تتحدث عن الدول الغربية أكثر من القصص البوليسية.

في أيام العطل كانت الأسرة تمضي أسبوعاً في بيتنا الخشبي في مزرعة المطاط التابعة لجدي تشوا في مقاطعة تشاي تشي. كنا نركب عربة يجرها ثوران ذات عجلات خشبية، يقودها المزارع الذي يعمل عند جدتي. كان الركوب بتلك العربة متعة حقيقية. ولقد تساءلت بعد خمسين سنة، في عام 1977، عندما سافرت بطائرة الكونكورد من لندن إلى نيويورك وعبرت الأطلسي في ثلاث ساعات، تساءلت ما إذا كان أحد المسافرين معي في الطائرة قد جرب متعة ركوب العربة التي يجرها الثور.

لم تكن الحياة كلها مسرات بسيطة. فبين فترة وأخرى كان والدي يعود إلى المنزل سيء المزاج بعد أن يكون قد خسر في لعبة (البلاك جاك) وغيرها من الألعاب في نادي السباحة الصيني في شارع عنبر، ويطالب ببعض الحلي

ليرهنها بحيث يستطيع أن يعود ثانية ويجرب حظه مرة أخرى. وكانت تحدث بينهما مشاحنات مرعبة، ويلجأ، إلى العنف أحياناً. ولكن أمي كانت أمرأة شجاعة مصممة على أن تحتفظ بمجوهراتها، هدية عرسها من والديها. لقد تزوجت في سن مبكرة جداً، ولكنها كانت ذات شخصية قوية وطاقة وعزيمة كبيرتين. فالمرأة في أيامها مطلوب منها أن تكون زوجة صالحة وأن تنجب كثيراً من الأولاد ليكونوا بدورهم أزواجاً وزوجات صالحين، ولو أنها ولدت بعد جيل واحد من جيلها، وأكملت تعليمها العالي، لاستطاعت بسهولة أن تصبح مديرة أو سيدة أعمال ناجحة ومتميزة.

وقد كرّست حياتها فيما بعد لتربية أولادها بحيث يحصلون على تعليم جيد ويعتمدون على أنفسهم في اختصاصهم.

وتصدت لوالدي كي تحمي مستقبلهم. كنت وإخوتي وأختي نعي جيداً تضحياتها، كنا نشعر بأننا لا ينبغي أن نخيب آمالها. وأن نفعل كل ما بوسعنا كي نكون جديرين بها وبآمالها فينا. وعندما كبرت بدأت تشاورني، بوصفي الولد الأكبر، في جميع شؤون العائلة المهمة، بحيث أصبحت وأنا في سن اليفاعة أشعر بأنني رجل البيت الفعلي. وهذا ما علمني كيف أتخذ القرارات

كان لجدتي من أمي آراء سديدة فيما يتعلق بتعليمي. ففي عام 1929 وقبل أن أبلغ السادسة، أصرت على أن ألحق بمدرسة قريبة متواضعة مع أولاد صيادي السمك، في ذلك الكوخ كان يوجد صف واحد ذو مقاعد مهترئة ومنصة مسطحة، وغرفة أخرى كانت بمثابة منزل للأستاذ الصيني البائس المتوسط العمر. وكان يطلب منا أن نردد الكلمات وراءه بدون إدراك معانيها؟ وإذا ما حاول أن يشرح شيئاً لم أكن أفهم منه.

كنت أشكو مر الشكوى لوالدتي وكانت بدورها تشكو لجدتي. ولكن أماً شابة في الثانية والعشرين ما كان بوسعها أن تمارس نفوذاً على أم متمرسة في الثامنة والأربعين من عمرها، وقد أنجبت تسع أطفال من زيجتين، بل كانت مصممة على

أن أتلقى بعض التعليم بالصينية. وقد سمحت جدتي مع هذا أن أغير المدرسة، فأرسلوني إلى مدرسة تشون حيث كنت أعود إلى المنزل سيراً على الأقدام كل يوم. هذه المدرسة كانت أفضل، تتألف من غون في شارع (جوتشيات) كانت على بعد ميل واحد من المنزل، وكنت أذهب إليها إذ تتألف من طابقين خشبيين مع أرضية من الإسمنت، وما يقارب عشرة صفوف مع مقاعد تتسع لما بين خمسة وثلاثين وأربعين تلميذاً في كل صف. كانت الدروس باللغة الصينية صعبة. في البيت كنت أتحدث الإنكليزية مع والديّ. والدي كان يتحدث بلكنة إنكليزية مختلطة بالصينية، وأتحدث المالاوية المختلطة بالهوكين مع أصدقائي أولاد الصيادين. كانت لغة الماندرين الأصلية غريبة كلياً ولا صلة لها بحياتي. ولم أكن أفهم الكثير مما كان يقوله المعلمون.

بعد مرور شهرين أو ثلاثة على هذا، توسلت إلى والدتي كي تنقلني إلى مدرسة تدرّس بالإنكليزية. واستطاعت أن تكسب موافقة جدتي هذه المرة، وفي كانون الثاني (يناير) من عام 1930 التحقت بالمدرسة الإنكليزية (تيلوك كواروا). وأصبحت الآن أفهم ما يقوله أستاذي وحققت تقدماً بقليل من الجهد. كان معظم الطلاب من الصينيين، ومن بينهم قلة من الهنود وبعض المالاويين الذين انتقلوا من مدرسة (تيلوك كوراوا) المالاوية.

كان والديّ مهتمين بقلة اجتهادي، وأوكلت أمي إلى خالي (كينغ هي) مهمة التأكد من تحضيري لدروس اليوم التالي. وكان علي أن أمضي ثلاث أمسيات في الأسبوع معه قبل العشاء، لمدة ساعة. وقد وجدت من السخف أن يُفوّض الأقل تعلماً من أخوالي بمتابعة وظائفي المدرسية.

حصلت على ترفيعين في المدرسة وعند المستوى الخامس، بعد سبع سنوات من التعليم الابتدائي ـ ست سنوات بالنسبة لي ـ تقدمنا جميعاً إلى الامتحان العام على مستوى الجزيرة للحصول على مقاعد في المدارس الإعدادية الحكومية. وقد بذلت في سنتي الأخيرة، 1935، جهداً إضافياً. وكنت الأول في المدرسة واكتسبت مكاناً في «معهد رافليز» الذي لم يكن يقبل إلا الطلاب المتفوقين.

كان «معهد رافليز» وما يزال المدرسة الثانوية الأولى، التي تدرس بالإنكليزية، في سنغافورة، وهي تحمل اسم مؤسسها. وقد خرّجت مجموعات صغيرة من الرجال البارزين ذوي الثقافة العالية، حصل الكثير منهم على منحة الملكة للالتحاق بجامعة أوكسفورد، أو كيمبريدج، أو لندن، أو إدينبرغ وغيرها من المعاهد البريطانية لدراسة الطب، أو القانون أو الهندسة.

في عام 1936 التحقت (بمعهد رافليز) مع ما يقارب 150 طالباً من الطلاب المتفوقين من خمس عشرة مدرسة ابتدائية حكومية. كان القبول يتم على أساس الجدارة والموهبة. وكان الطلاب ينتمون إلى جميع الأعراق والطبقات والأديان، بمن فيهم الكثير من مالايا. وكان المديرون الأوائل من الإنكليز الذين شكلوا المعهد وفقاً لنموذج المدرسة العامة الإنكليزية.

كان المنهج الدراسي يهيئ الطلاب لامتحانات الإمبراطورية للشهادات الدنيا والعليا لجامعة كمبريدج. وكانت الكتب والبرامج، ولاسيما المتعلقة منها باللغة الإنكليزية، والأدب الإنكليزي، وتاريخ الإمبراطورية البريطانية، والرياضيات، والجغرافيا موحدة بالنسبة لجميع المستعمرات، مُعدلة كما أعتقد عن تلك المستخدمة في المدارس البريطانية. وكان التعليم باللغة الإنكليزية حصراً. وبعد سنوات عدة، حينما كنت ألتقي زعماء (الكومونولث) من الجزر البعيدة في الكاريبي أو المحيط الهادي، اكتشفت أنهم تلقوا البرامج والنصوص ذاتها وأنهم يحفظون المقاطع ذاتها من شعر شكسبير.

كان ثمة أربع درجات في المدرسة الثانوية: الدرجتان 6 و7، لشهادتي كمبريدج الدنيا والعليا. لم أكن شديد الدأب في الدراسة، ولكنني كنت جيداً في مادة الرياضيات والعلوم ومتقدماً في اللغة الإنكليزية. لذا في نهاية الدرجة السادسة، كنت من بين أفضل الطلاب ورُفعت إلى الدرجة 7 آ، حيث كنت من بين الثلاثة الأوائل بدون عناء كبير. كنت ما زلت غير شديد الانتباه، والإصغاء في الصف، وكنت أحاول أن أنقل متلصصاً من فوق الطالب الذي يجلس إلى جانبي. إذ أن

تيوكاه ليونغ، لم يكن الطالب الأول في الصف فحسب، بل كان يحتفظ بملخصات جيدة عن الدروس. ولكنه كان يغطي الصفحات بيديه. ومع هذا فإن أستاذي الهندي واسمه م.ن كامبوس، كتب في تقرير عني هذه الكلمات التي تنطوي على الثناء والتشجيع: «هاري لي كوان يو طالب مجد ومتميز. ومن المحتمل أن يحصل على منصب رفيع في الحياة».

التحقت بالصف (جونيور A) وهو أفضل صف من حيث المستوى. كان المسؤول عن الصف إنكليزياً يدعى آ.ت غريف، وهو شاب من خريجي أوكسفورد، ذو شعر كثيف وطبيعة ودية.

كان عازباً في أواخر العشرينيات من عمره، ويمضي مهمته الأولى عبر البحار. لم يكن لديه أي تميز عرقي، ربما لأنه لم يُمضِ وقتاً طويلاً في المستعمرة كي يتعلم أن يحافظ على مسافة معينة بينه وبين السكان المحليين، وهي ما كانت تعتبر ضرورية للإبقاء على السيطرة البريطانية. استطاع أن يحسّن لغتي الإنكليزية إلى حد كبير، وقد اجتهدت جيداً وكنت الأول في امتحانات كيمبريدج الدنيا، وكان أول امتحان أؤديه على أوراق جامعة كيمبريدج وعلاماتها. كذلك تلقيت جائزتين ذلك العام: منحة معهد رافلز ومنحة جياك كيم. وقد بلغت قيمة كلتيهما مبلغاً يعادل 350 دولاراً كاملة. وكانت كافية كي أشتري دراجة رالي أنيقة بـ 70 دولاراً، ثلاثية الحركة وبها صندوق خلفي، وهكذا كنت أذهب إلى المدرسة متأنقاً وما يزال لدي احتياطي من المال. ولكن كان ينتظرني ما هو أفضل. فقد كنت أعد نفسي للتفوق في امتحانات جامعة كيمبريدج العليا، سُعدت عندما أظهرت النتائج في وقت مبكر من عام 1940 أنني كنت الأول في المدرسة، بل الأول على جميع الطلاب في سنغافورة والملايو.

كنت مستمتعاً بالسنوات التي أمضيتها في (معهد رافليز). إذ توافقت مع العمل توافقاً مريحاً، وكنت من الناشطين في الحركة الكشفية، كنت ألعب الكريكيت وقليلاً من التنس، وأسبح، وأشارك في كثير من المناقشات. لكنني لم

أكن أبداً مثالياً وهيهات أن أبلغ حد الكمال. كان هناك أمر ما يزعجني أو يلهيني في داخلي. كثيراً ما كنت أضبط بحالة عدم انتباه في الصف أنسخ الملاحظات من رفاقي الطلاب، أو أحاكي بعض طرق الأساتذة الغريبة في التصرف. أما بالنسبة إلى أستاذ العلوم الهندي الممل فقد ضُبطت في المختبر أرسم خلفية رأسه الأصلع.

طردت مرة من قبل المدير: كان د.و. ماك لويد عادلاً وصارماً، يفرض النظام على الجميع، ومن بين القواعد التي يتبعها أن الطالب الذي يتأخر ثلاث مرات في الفصل الواحد سينال ضربات بعصا من الخيزران. كنت أنهض متأخراً دوماً، وعندما تأخرت ذات مرة للمرة الثالثة في أحد الفصول عام 1938 أرسلني مسؤول الانضباط لمقابلة مك لويد. عرفني المدير من الجوائز التي حصلت عليها في أيام توزيع المكافآت، ومن المنح المجانية التي حصلت عليها. ولكنه لم يعفني من العقاب. انحنيت على الكرسي وتلقيت ثلاث ضربات على رجليّ. أعتقد أنه خفف لي الضربات. لم أفهم أبداً لماذا يعارض المربون الغربيون العقوبة الجسدية. إنها لم تؤذ رفاقي ولم تؤذني.

ومع هذا كنت أتعلم أن آخذ الحياة بجدية. وكان والديّ يخبراني كيف أن بعض أصدقائهما أصبحوا محامين وأطباء بفضل دراستهم. لقد اعتمدوا على أنفسهم ولهذا لم يتأثروا بما ألحقه (الكساد) من أذى.

كان أبي يتأسف على إضاعة شبابه، وكان يحثني ووالدتي على تلقي تعليم عال. لهذا هيأت نفسي أن أكون محامياً، ومحترماً، لا أن أكون مستخدما. كان هدفي أن أدرس القانون في لندن.

ولكن في عام 1940 كانت الحرب في أوروبا تجري على نحو سيء. فقد كانت فرنسا مهددة بشدة وعلى وشك أن تُحتل. وكان من الأفضل تأجيل دراسة الحقوق في لندن. ولما كنت الأول في سنغافورة والملايو في امتحانات كيمبريدج العليا، فقد حصلت على «منحة أندرسون» وهي أعلى منحة آنذاك للدراسة في

«كلية رافيلز» وقررت أن أقبلها. كانت تزيد بمقدار 200 دولار عن أية منحة حكومية أخرى، وكافية كي أدفع الرسوم وأشتري الكتب واللوازم. وأترك شيئاً للمصروفات الاحتياطية.

تأسست كلية رافيلز عام 1928 من قبل حكومة (ستريت سيتلمينتس) كانت تدرس الفنون (الإنكليزية، والتاريخ، والجغرافية، والاقتصاد) والعلوم (الفيزياء والكيمياء والرياضيات التطبيقية والبحتة).

وقد بنت الحكومة أبنية أنيقة لهذه الكلية ذات واجهات جميلة، تشبه تلك الموجودة في اكسفورد وكيمبريدج ولكنها تتلاءم مع المناخ المداري.

ولما كنت طالب منحة، كان علي أن أبقى في إحدى قاعات الإقامة. كان التكيف صعباً. فقد بنى المهندسون للتلاؤم مع طقس سنغافورة الحار والرطب مهاجع كبيرة ذات أسقف عالية. وكل مهجع منقسم إلى عشرين غرفة ذات نوافذ فرنسية تؤدي إلى شرفات مفتوحة. الحواجز بين الغرف كان ارتفاعها 7 أقدام فقط، أي بالكاد أطول من قامة الإنسان، كي تسمح بدوران الهواء بحرية. وكان هذا يعني أن الصوت يلف الغرف أيضاً والشرفات والتي يشغل كل منها عشرون طالباً، كان على كل طالب أن يختار ثلاث موضوعات. درست الإنكليزية التي كانت مقرراً الزامياً بالنسبة لجميع الطلاب، وقد ركزت اهتمامي عليها لتحسين قدرتي اللغوية ولكي تساعدني على دراسة القانون والرياضيات لاحقاً، كونني أحبها ومتفوقاً فيها، وعلى دراسة الاقتصاد لأنني كنت أعتقد أنه سيعلمني كيف أكسب المال في العمل وسوق الأسهم ـ كنت ساذجاً! وبعد السنة الأولى كان على الطالب أن يختار موضوعاً واحداً كمادة أساسية لدراسته. فاخترت الرياضيات.

في نهاية الفصول الدراسية الثلاثة في السنة الأكاديمية تأتي الامتحانات، وفي أول امتحان منها كنت الأول في مادة الرياضيات، وحصلت على أكثر من تسعين درجة. ولكنني اكتشفت بشعور من الخوف أنني لم أكن الأفضل في مادة اللغة الانكليزية أو الاقتصاد. كنت الثاني، وجاءت بعدي بفارق كبير الآنسة

كواجيوك تشو. كنت قد تعرفت على الآنسة كوا في معهد رافيلز. وفي عام 1939، طلب منها بوصفها الطالبة الوحيدة في المدرسة أن تقدم الجوائز في اليوم السنوي لتوزيع الجوائز، وقد حصلت على مجموعة من ثلاثة كتب منها. كانت في الصف الخاص تستعد للحصول على منحة الملكة الدراسية لسنتين.

كنت منزعجاً وقانطاً. فقد كانت هناك منحتان فقط باسم الملكة في السنة لجميع (مستعمرات سترتيس) (سنغافورة وبينانغ ومالاكا) وليس بالضرورة أن يحصل عليها أفضل طالبين من حيث العلامات. وفوق ذلك كنت أخشى من توزيع جغرافي عادل يقوم على إعطاء فرصة لمشتركين من بينانغ ومالاكا. وإدارة المنح قد لا تعطي منحتين لطالبين من سنغافورة، وبالتالي فإن من يحصل على المرتبة الثانية قد لا يستفيد شيئاً.

لم أستمتع بسنتي الأولى في (كلية رافيلز) كما كان الحال في معهد رافيلز. عرف الجميع أنني كنت الأول قبل أن أصل إلى الكلية. وكنت موضع شك من قبل زملائي وكان بعضهم يزعجني. كان عليّ أن أقوم بكثير من الأعمال التي لم أكن أحبها أو أراها مملة وسخيفة، ولكني تحملت كثمن لا بد من دفعه للانتساب إلى معهد يفتقر إلى النضج وينمي تقاليد خاطئة.

كان علينا أن نحضر المحاضرات ونحن نلبس الجاكيت وربطة العنق. لم تكن غرف الصف مكيفة، ولكن كان ثمة غرفة في القسم العلمي توجد فيها مدفأة توقد بعض الظهر. وكان من الطبيعي أن أصاب بالسعال والبرد. كذلك كنت منزعجاً من وجودي في محيط غريب، مع تسعة عشر طالباً آخرين في مجمع واحد، وأن آكل من طعام المعهد غير الشهي.

بعد السنة الأولى انتقلت من المجمع (C) إلى مجمع أفضل هو المجمع (E) حيث وجدت في غرفة أفضل وأكثر برودة. ولكن الإحساس بالضياع لا بد أن يؤثر على أدائي الأكاديمي. وأذكر أنني في أحد امتحانات الفصل لم يكن أدائي ممتازاً حتى في الرياضيات. ومع هذا فقد كنت في امتحانات نهاية السنة

الدراسية موفقاً وكان ترتيبي الأول في مادة الرياضيات البحتة. ولكن الآنسة كواجيوك تشو كانت الطالبة الأولى في اللغة الإنكليزية والاقتصاد، وربما التاريخ أيضاً، وهو مادتها الثالثة. وحصلت على علامة أفضل قليلاً من علامتها في الإحصاء الذي كان جزءاً من مادة الاقتصاد. كنت أعرف أنني سأواجه منافسة شديدة من أجل الفوز بمنحة الملكة.

كان ثمة مشكلات أخرى. ومن خلال استرجاع الذاكرة تبيّن لي أن كلية رافيلز كانت استهلال معرفتي بسياسة العرق والدين. ففي مستعمرة بريطانية لا تفرق بين الأعراق كان المالاويون السنغافوريون معتادين على أن يعاملوا مثل الآخرين. ولكن في حزيران عام 1940، قابلت لأول مرة عدداً لا بأس به من المالاويين الذين وُلدوا مترعرعين في ظل نظام مختلف. ففي الولايات المالاوية الاتحادية (FMS) التي تضم: بيراك وسيلانغور وباهانغ ونيغري سيمبيلان، والأكثر من ذلك ولايات الملايو غير الاتحادية (جوهور وكيداي وبيرليس وكيلانتان وتيرينغانو) كان المالاويون الأصليون يتمتعون بحقوق سياسية واقتصادية خاصة. ففي اتحاد (FMS) كانت هناك خمس منح فقط (لكلية رافيلز) مفتوحة أمام غير المالاويين، في حين كان للمالاويين خيار أكبر وكذالك في الولايات المالاوية غير المتحدة. وكان من بين كل مئة طالب مقبول كل سنة عشرون طالباً من المالاويين من داخل البلاد ممن يتمتعون بمنح تدفع من حكومات ولاياتهم.

كان ثمة شعور قوي بالتضامن ما بين المالاويين، وهو إحساس نما بسبب الشعور بالتهديد، أو الخوف من المهاجرين الهنود والصينيين الأكثر نشاطاً ودأباً. أحد المالاويين في صفي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء ماليزيا. فقد التحق عبد الرزاق بن حسين في صفوف اللغة الإنكليزية والاقتصاد ذاتها التي التحقت بها، ولكننا لم نكن صديقين حميمين. كان ينتمي إلى طبقة ارستقراطية مالاوية في باهانغ، ولهذا كان ينأى بنفسه قليلاً عن باقي الطلاب المالاويين، الذين كانوا يشخصون بأبصارهم إليه، أما أولئك الذين كنت أتعامل معهم بسهولة أكبر فكانوا من الطلاب العاديين، وكنت ألعب مع أحدهم الكركيت في الكلية.

ولما كان لدي كثير من الأصدقاء الماليويين منذ الطفولة، فقد كانت لغتي الماليوية طليقة. ولكنني سرعان ما اكتشفت أن موقفهم نحو غير الماليويين، ولاسيما الصينيين يختلف تماماً عن موقفهم من الماليويين من سكان سنغافورة.

أخبرني أحد الطلاب من كيداه في سنتي الثانية في المدرسة، بعد أن أصبحنا أصدقاء: (أنتم الصينيون نشطاء جداً وأذكياء جداً في كيداه، حيث يوجد كثير منكم. لا نستطيع أن نقاوم الضغط). وكان يقصد ضغط المنافسة على الأعمال والتجارة، وعلى الأماكن في المدارس والجامعات. الماليويون كانوا مالكي الأرض، ومع هذا بدا أنهم يشعرون بخطر الإبعاد عن المراكز الرفيعة من جانب القادمين حديثاً، الذين كانوا أكثر ذكاءً وتصميماً وقدرة على المنافسة وربما لأنهم كانوا الأفضل والأكثر ثقة بالنفس، فإن الصينيين والهنود كانوا يفتقرون إلى هذا الشعور بالتضامن. لم يكن ثمة وحدة بينهم لأنهم لم يكونوا يشعرون بالتهديد.

ما يزال حدث ماثلاً في ذاكرتي. ففي سنتي الثانية كان لدي إحساس كبير بالكآبة تجاه ترتيبات حفلة غداء (اتحاد طلاب كلية رافيلز) السنوي في فندق (سي فيو). كان غير الماليويين يستاؤون من ردود الفعل الحادة والمتعجرفة من قبل الأمين العام الفخري، أونغكو عزيز بن عبد الحميد تجاه شكواهم.

وشرعت قلة من الطلاب بحركة من أجل لقاء عام استثنائي لتوبيخه وحرمانه من منصبه. ولكنه كان مالاوياً. وبعد أن انتهت عملية جمع التوقيعات لهذا الاجتماع الاستثنائي، تكاتف الطلاب الماليويون معه وأوضحوا بجلاء أنه إذا أزيح من منصبه فإنهم سيستقيلون جماعياً من الاتحاد. وكان هذا يعتبر تحدياً لغير الماليويين. اقتربت وطلبت أن ألقي الخطاب الافتتاحي وأن أطرح شكواهم ضد أونغكو عزيز. ولم أحضر حفل الغداء، ولم يكن بيني وبينه مصادمة شخصية. ولكن لما كان الجميع عازفين عن هذه المهمة الكريهة قررت أن أقوم بها أنا. جرى الاجتماع بعد ظهر السبت، وكان معظم الطلاب قد انصرفوا، ربما لأنهم يريدون تجنب هذا الموقف غير المريح. حضر بقوة الماليويون فقط. كان التوتر شديداً، والمشاعر العنصرية قوية.

كانت تجربتي الأولى مع المالاوية، كان لدي تعاطف شديد مع المالاويين. أديت المهمة، بجرأة وبطريقة محسوبة ولكن بدون عدوانية. وتكلم أونغكو عزيز داحضاً جميع المزاعم المتعلقة بسلوكه الفظ. شعرت أن المحاضرين من الطلاب الذين يقترب عددهم من الثمانين طالباً غير مرتاحين البتة إزاء تأكيداته. وعندما جرى التصويت فاز المالاويون لصالح أونغكو عزيز، وانفض الاجتماع. ولكن غير المالاويين شعروا بأنهم سجلوا نقطة واختفت هذه الحادثة من ذاكرتي. ولكن في وقت متأخر ما بين 1963 و1965، عندما كنا في ماليزيا ونعاني من مشكلات مشابهة مع الماليزيين، عادت بي الذاكرة إلى تلك الحادثة.

ولكنه إذا كان وقت المنافسة فقد كان أيضاً زمن تكوين صداقات دائمة. فكثيرون ممن التقيت معهم لأول مرة في (كلية رافيلز) أصبحوا زملاء سياسيين ودودين، وكان من بينهم توه تشين تشاي، وهو طالب علوم أكبر مني سناً، دؤوب ومنتظم في عمله، هادئ ومستقيم، وجوه كينغ سوي، مدرس الاقتصاد الذي يتمتع بذهن متقد، لم يكن لامعاً في التحدث، لكنه بارعاً في الكتابة. عندما بدأت مهنتي محامياً في الخمسينيات كان لدي شبكة من الأصدقاء والمعارف من ذوي المراكز المهمة في الحكومة والمهن في سنغافورة والمالايو. وحتى إذا كان المرء لا يعرف شخصاً ما شخصياً، فإن مجرد وجود خلفية مشتركة يجعل الأمور أسهل، كما أن روابط المدرسة القديمة لها تأثير حسن في كل من سنغافورة والمالايو، حتى بين الصينيين والمالاويين. وقبل أيام العمل السياسي الفعال، وعندما كانت السلطة بالكامل في أيدي البريطانيين، لم أكن أشعر بأية ضغينة أو كراهية من المالاويين وفي الجزء الداخلي من البلاد كان لدي صداقات مع كثيرين منهم، بمن فيهم اثنان من القضاة مثلت أمامهما فيما بعد.

كانت شبكة أولاد كبار من النخبة من ذوي التعليم الإنكليزي والنشأة التربوية البريطانية الكولونيالية. درسنا في مدارس متشابهة وقرأنا الكتب ذاتها وتشاركنا في كثير من المواقف والصفات. ولم تكن المدارس البريطانية العامة النظام العامل الوحيد الذي يشجع على وجود شلل من خلال الأحاديث وأسلوب الحياة واللباس وطريقة أداء الأشياء.

3. الغزاة اليابانيون

كنت نائماً في المبنى (E) من كلية رافلز، في الساعة الرابعة من الصباح الباكر لليوم الثامن من كانون الأول (ديسمبر) من عام 1941، عندما صحوت على صوت دوي القنابل. لقد بدأت الحرب مع اليابان. كانت مفاجأة كاملة. كانت أضواء الشوارع مُنارة، وصفارات الإنذار لم تطلق حتى أسقطت تلك الطائرات اليابانية قنابلها وقتلت 60 فرداً وجرحت 130 آخرين. ولكن الغارة جرى التخفيف من أهميتها. ومنعت الرقابة الأخبار التي تفيد أن أحواض ميناء كيبيل، والقاعدة البحرية في سيمبا وانغ، وقاعدتي تينغاه وسيليتار الجويتين قد هوجمتا أيضاً.

الطلاب في كلية رافلز كانوا قلقين بشدة. أولئك الذين يعيشون في داخل البلاد تهيأوا على الفور للعودة إلى بيوتهم بالقطار. كان كل واحد تقريباً يعتقد أن سنغافورة ستكون الهدف الرئيسي للهجوم، لذا فمن الحكمة العودة إلى ريف الملايا، الذي سيوفر أماناً أكثر من القاذفات اليابانية. كانت إدارة الكلية مضطربة بدورها مثل الطلاب. لم يكن أحد مستعداً لهذا. وبعد يومين سمعنا أن اليابانيين قد أنزلوا قواتهم في كوتا بهارو في منطقة كيلانتان. فالملايا لن تنجو من الاحتلال في النهاية.

وفي غضون أيام فرغت بيوت الضيافة من قاطنيها تقريباً. وعُلّقت المحاضرات، وطُلب من الطلاب أن يتطوعوا في وحدة كلية رافلز لتقديم (الخدمات الطبية المساعدة). تطوعت في هذه الخدمة، وكنت أركب الدراجة يومياً من بيتي (في نورفولك منذ1935) إلى مركز الكلية حيث أقطع ثلاثة أميال. لم نزود بألبسة رسمية لهذا الغرض ـ إذ لم يكن ثمة وقت لذلك ـ ولكن زُود كل واحد منا بخوذة وبربطة على الذراع تحمل شارة الصليب الأحمر، وكانوا يمنحوننا أجرة رمزية مقدارها حوالي 60 دولاراً في الشهر، كنا نعمل في مقابلها على مدار الساعة. نُظمنا في وحدات تضم الواحدة منها ست أفراد. لم نكن نشعر بالخوف.

كان ثمة إحساس بالقهر، إحساس بأننا في حالة حرب وأننا منغمسون في معارك حقيقية. ولكن الحرب كانت نتيجتها وخيمة. إذ سرعان ما تواصلت الأخبار من مالايا حول سير المعارك، وعن السهولة التي كان اليابانيون بها يقطعون خطوط البريطانيين ويصلون بالدراجات إلى مقاطعات المطاط جنوب شبه الجزيرة، وينزلون إلى البر بالقرب من خطوط العدو بالقوارب وزوارق (السامبان) الصينية ذات الحبال، مُجبرين البريطانيين على مزيد من التراجع. وبدأت أعداد وفيرة من الأسر البيضاء ـ مزارعون ومواطنون مدنيون مع أسرهم وأطفالهم ـ تصل إلى (كوزواي) وكان هناك أسر آسيوية أيضاً ولكنها لم تبحر، كانوا يتوجهون إلى بيوت أصدقائهم وأقاربهم. أو يبحرون بهدوء من سنغافورة خشية انتقام اليابانيين منهم لمساعدتهم البريطانيين، أو للمساهمة في (صندوق جنوب الصين للإنقاذ) لدعم مقاومة شان كاي تشيك لليابانيين على أرض الصين.

وفي كانون الثاني (يناير) اقتربت القوات اليابانية من جوهور، وشرعت طائراتهم بقصف سنغافورة بشدة، ليلاً ونهاراً. أُصبت لأول مرة في أحد الأيام بعد الظهر في قرية (بوكيت تيماه). وكان هناك عدة وحدات تابعة للخدمات الطبية قد سافرت إلى سنغافورة مستخدمة باصات (شركة تراكشن) والتي حولتها لسيارات إسعاف. سقطت قنبلة قرب مخفر للشرطة وسقط عدد من الضحايا. كان مشهداً مرعباً. إذ كانت أول تجربة في مشاهدة النازفين والجرحى والموتى.

في حوالي الساعة الثامنة صباحاً، كنت وصديق لي من باهانغ جالسين عند حاجز يحيط بالقسم الإداري لكلية رافلز، في مهمة حراسة للوحدة الطبية (MAS) عندما وقع فجأة انفجار زلزل الأرض من تحت أقدامنا. أصيب كلانا بالذهول، وقلت بعفوية (هذه نهاية الامبراطورية البريطانية): سمعني الأستاذ داير، مدير «كلية رافلز». الذي كان ماراً في طريقه إلى مكتبه، ونظر إلي ثم تابع سيره.

في صباح اليوم نفسه انسحبت جميع القوات البريطانية من جوهور إلى الجزيرة. وفي اليوم التالي، حملت الصحف صور الدمار في أغريل وسوتيرلاند هايلانديرز. وهما آخر موقعين للوصول إلى (كوزواي).

وقد خلفت عندي هذه المشاهد إحساساً ببرودة الإنكليز تجاه هزيمة وشيكة لازمني طوال حياتي. وما لبث المهندسون الملكيون أن شقوا ثغرة في كوزواي في جانب جوهور، وقصفوا موريس كما فجروا أنبوب المياه الذي ينقل الماء من جوهور إلى الجزيرة. لقد بدأ حصار سنغافورة.

وفيما كنت أركب الدراجة في طريقي إلى البيت صباحاً، وأنا أضع شارة الإسعاف على ذراعي، مررت بطابور من الشاحنات العسكرية كان متوقفاً في شارع (ستيفينس) وكان يقف إلى جانبها بعض الجنود الطوال الأوستراليين مرتدين قبعات واسعة وعيونهم تقدح بنظرات توحي بوهن العزيمة. كانوا يبدون خائفين ومحبطين. توقفت لأسألهم عن مدى قرب الجبهة. فقال أحد الجنود: «لقد انتهى الأمر هنا، خذ هذا»، وقدم لي أسلحته. كنت مذهولاً وأنا أرتعش. هل يمكن أن يكون هذا تعبيراً عن يأس؟

رفضت أخذ الأسلحة وحاولت أن أغريه بالقول: إن المعركة لا تُخسر إلا عندما تنتهي. لكن المعركة بالنسبة للأوستراليين كانت قد انتهت. كانت معاناتهم مريرة. فبعد الحرب قرأت أن عدة كتائب من القوات الأسترالية كانت تبحر إلى الشرق الأوسط حيث كانت قد حُوّلت إلى سنغافورة. ووصلوا قبل ثلاثة أسابيع فقط من سقوط الجزيرة، ونُقلوا إلى وسط البلاد، وسرعان ما رُدّوا على أعقابهم. كان من المتوقع أن يقاتلوا في صحارى شمال إفريقية، ربما في ليبيا ضد قوات رومل. وفجأة وجدوا أنفسهم في دغل مداري يواجهون اليابانيين. كانت مأساة بالنسبة لهم وكارثة بالنسبة للروح المعنوية للقوات البريطانية والهندية التي كان يُفترض أن تساعدهم.

في تلك الأثناء أخبر والدي، الذي كان يعمل مراقباً في موقع لشركة (شل) في (باتوهات)، على بعد 100 ميل إلى الشمال من الشاطئ الغربي لمالايا، بإخلاء ذلك الموقع. وعاد إلى الجزيرة بسيارته (الأوستن) الصغيرة قبل أن تدمر (كوزيواي). كنا ما نزال نأمل أن تصمد قلعة سنغافورة. كنت أعرف أن خسائر جمّة ستقع، ولكن البريطانيين سيتشبثون بها، وبالتالي سننجو. ولكن كل يوم كان يمر، بل في كل ساعة بعد الأسبوع الأول من شهر شباط، كنت أشعر في داخلي بأن سنغافورة ليست مالطة وأنها لا تستطيع أن تصمد أمام حصار طويل.

في أواسط شهر كانون الثاني (يناير) أغلقت المدارس. ومع اقتراب القذائف من المدينة اقترحت أمي أن تنتقل العائلة كلها إلى بيت والدها الذي كان بعيداً وأقل عُرضة للقصف، أيدت الانتقال ولكنني قلت لها: إنني سأبقى لكي أعتني بالبيت في شارع نورفولك مع الاستمرار في واجباتي في كلية رافلز (محطة MAS). ولن أكون وحيداً نظراً لوجود البستاني الذي يعمل عندنا، كوه تيونغ كو، فهو سيبقى في شارع نورفولك، ليحرس البيت فيما أقوم أنا بواجباتي في الكلية. كما كان أيضاً يجر العربة التي تنقل إخوتي من البيت إلى المدرسة وبالعكس كل يوم منذ 1937. وكنا قد بنينا ملجأ من الطائرات، وهو بناء خشبي تحت الأرض مغطى بالتراب، كانت أمي تخزّن فيه الأرز وبعض المؤن الأخرى مما قد نحتاجه لوقت طويل. لم تكن النقود مشكلة بالنسبة لنا لأن شركة شل كانت قد دفعت بسخاء لوالدي رواتب سبع أشهر، عندما طُلب منه أن يغادر محطة النفط في (باتو باهات).

ووسط هذه الآفاق المظلمة كنت أذهب إلى السينما خارج أوقات العمل. وقد ساعدني ذلك على الهروب من المستقبل القاتم مدة ساعتين. وبعد ظهيرة أحد الأيام في كانون الثاني (يناير) حضرت فيلماً كوميدياً في سينما كاثي، ففي أحد المشاهد كان يفترض أن تنفجر قنبلة وتحدث صوتاً. ولكنها كانت معطلة. وظهرت على الشاشة عبارة (صنع في اليابان). كان أمراً مستغرباً. فطوال الشهرين

الماضيين عانت سنغافورة من شدة انفجار قنابلهم وقذائفهم، ومع هذا فقد سخرت من اليابانيين وأنا أشاهد ذلك الشريط ـ الذي يفترض فيهم أن يكونوا ذوي عيون شبه مغمضة، ومقوسي السيقان، غير قادرين على الإصابة مباشرة أو بناء السفن التي تستطيع مجابهة الرياح. إنهم قادرون فقط على صنع أسلحة لا تنفجر. ولكن الحقيقة المحزنة أنهم أثبتوا طوال الشهرين الماضيين منذ الثامن من كانون الأول شجاعتهم وارتفاع مهارتهم العسكرية إلى درجة أنهم حققوا نجاحاً مرموقاً في معظم المعارك ضد القوات الإنكليزية.

بعد ذلك بعدة سنوات كتب وينستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني في فترة الحرب عن سقوط سنغافورة: (كان أسوأ كارثة وأكبر إخفاق في تاريخ بريطانيا).

استولى العسكريون على الكلية بكاملها في العاشر من شباط (فبراير) بعد أن انسحب البريطانيون، وبعد يومين حُلّت الوحدة الطبية (MAS). في البداية مكثت في بيتنا في شارع نورفولك، ولكن مع اقتراب القصف التحقت بعائلتي في تيلوك كوراد. وفي اليوم التالي سمعنا بعض الطلقات النارية البعيدة التي أصبحت تقترب شيئاً فشيئاً. لم يكن هناك أصوات مدافع ضخمة أو قنابل. ومن الغريب أنني كنت أخرج من البوابة الخلفية إلى لورونغ ل، الدرب المتاخم للمخيم حيث كنت ألعب مع أصدقائي أولاد صيادي السمك. وقبل أن أمشي أكثر من عشرين ياردة فوق الممر رأيت شخصين يرتديان ملابس رسمية داكنة اللون تختلف عن ملابس القوات البريطانية الخضراء والبنية اللون. كانت ملابسهم مختلفة تماماً. وقد علمت فيما بعد أن النعال التي يرتدونها تساعدهم على عدم الانزلاق أو التعثر. كما كانت قبعاتهم مختلفة أيضاً فهي ذات ذيل يحمي أعناقهم. بدوا لي كأنهم لا ينتمون إلى هذه الأرض لضآلة أجسامهم وطول بنادقهم ذات الحربات الطويلة. كما تصدر منهم رائحة كريهة لا يمكن أن أنساها. رائحة أجساد لم تعرف الاستحمام طوال شهرين من القتال وسط الغابات والشوارع من كوتا بهارو إلى سنغافورة.

مرت بضعة ثوان قبل أن أتحقق من هم. إنهم يابانيون! وتجمدت من الذعر. ولكنهم كانوا يبحثون عن الجنود المعادين. ومن الواضح أنني لست منهم، لذا فقد تجاهلوني وتابعوا سيرهم. اندفعت عائداً إلى البيت وأخبرت أسرتي عما شاهدت. أغلقنا الأبواب والنوافذ، ولا يعلم إلا الله ما إذا كان يحمينا ذلك. كانت المخاوف شديدة من الاغتصاب والنهب والسلب بسبب ما شاع عن اليابانيين بعد فظائعهم في الصين منذ عام 1937. ولكن لم يحدث شيئاً من ذلك بقية النهار أو في الليل. كانت القوات البريطانية تتراجع بسرعة إلى مركز المدينة دون أي مقاومة تذكر.

كان اليوم التالي، الخامس عشر من شباط (فبراير) من السنة القمرية الجديدة، وهو أكبر احتفال سنوي عند الصينيين، الذي يحتفلون به عادة بملابس جديدة، وأحذية جديدة، وبوفرة من الصحون التقليدية وأنواع المعجنات اللذيذة.

كانت أكثر أعياد رأس السنة إثارة للاشمئزاز منذ جاء الصينيون إلى سنغافورة عام 1819. فقد كنا نسمع أصوات معركة في الشمال قرب المدينة، وأصوات بعض قذائف المدفعية ومدافع الهاون البعيدة نسبياً، ولكن لا شيء في منطقة تيلوك كوراد نفسها. فاليابانيون كانوا قد مشطوا المدينة.

في تلك الليلة سكتت أصوات المدافع. وسرعان ما سرت أخبار تفيد بأن البريطانيين استسلموا. وفي اليوم التالي ذكر بعض الأصدقاء العائدين من المدينة أن أعمال النهب والسلب قد نشطت. فقد نُهبت بيوت البريطانيين وأوروبيين آخرين من قبل سائقيهم وحراس جنائنهم من المالاويين. وقد أثار هذا قلقاً شديداً لدى أسرتي. ماذا عن شارع نورفولك 28 مع كل أطعمتنا وأغراضنا التي لم نتفقدها منذ زمن طويل؟ فاصطحبت البستاني تيونغ كو، بعد إذن من أمي، معي ومشينا ثمانية أميال تقريباً من تيلوك كوراو إلى شارع نورفولك. وقد أخذ منا الطريق ما يقارب ساعتين. رأيت مالاويين يحملون قطع أثاث وأشياء أخرى من البيوت الكبيرة على طول الطريق. أما السارقون الصينيون فقد ذهبوا

لسرقة البضائع في المخازن والمحلات، الأخف وزناً والأغلى ثمناً. وفي منزل ريفي مخرب يقع على مسافة بيتين من بيتنا كانت تقطن هناك 20 عائلة من البويانيز، معظمهم من السائقين. ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى بيتنا. كانت مجالات السرقة أكبر في البيوت الكبيرة، والتي خلت الآن من الأوروبيين الذين جُمعوا معاً بغية اعتقالهم. لقد عدت في الوقت المناسب.

في الساعتين اللتين أمضيتهما في السير من تيلوك كوراو وحتى شارع نورفولك، وجدت سنغافورة في حالة يرثى لها. فالجيش البريطاني قد استسلم. والشرطة المحلية ـ المؤلفة من صينيين وهنود من الضباط الصغار ومن الجنود المالاويين ـ قد اختفت خوفاً من أن يعاملها اليابانيون بوصفها جزءًا من القوة العسكرية البريطانية. لم يكن الجنود اليابانيون قد ظهروا في الشوارع بعد. كان كل فرد يمثل القانون بحد ذاته.

وخلافاً للعادة ظل بعض الناس غير جزعين. ولكن مع غياب المسؤولية، استغل الجريؤون منهم الفرصة لنهب الممتلكات والمخازن والمحلات التابعة لشركات بريطانية لاعتقادهم بأنهم يقومون بنهب مشروع. واستمر هذا الحال بضعة أيام قبل أن يعيد اليابانيون النظام. لقد زرعوا الخوف في قلوب الناس من خلال إطلاق الرصاص على بعضهم أو شنقهم أو عرض رؤوسهم في الجسور الرئيسية أو على مفارق الطرق.

كذلك شارك الغزاة اليابانيون في نهب المغانم. ففي الأيام الأولى كانوا ينزعون من كل واحد يرونه في الطريق قلمه أو ساعة معصمه. وكان الجنود يقتحمون البيوت للتفتيش بصورة رسمية أو يدّعون ذلك، من أجل الحصول على أشياء صغيرة يستطيعون إخفاءها في جيوبهم. في البداية كانوا يصادرون أفضل الدراجات. ولكنهم توقفوا عن ذلك بعد بضعة أسابيع. ولم يمكثوا في سنغافورة إلا لوقت قصير قبل أن يغادروها إلى جافا أو أية جزيرة أخرى في الأرخبيل للقتال ولاحتلال المزيد من الأراضي. ولم يكن بوسعهم أن يأخذوا دراجاتهم الأنيقة معهم.

كان نهب البيوت والمخازن الكبيرة التي تعود لسادتنا البريطانيين رمزاً لنهاية حقبة من الزمن. من الصعب على أولئك الذين ولدوا بعد 1945 أن يتقبلوا المضامين الكاملة للهزيمة البريطانية، كما لا يتذكرون النظام الاستعماري الذي فرضه اليابانيون في الخامس عشر من شباط (فبراير) 1942. فمنذ عام 1819، عندما أنشأ رافلز سنغافورة كمركزٍ تجاري (لشركة الهند الشرقية) كان تفوق الرجل الأبيض مسألة غير قابلة للمناقشة. لم أعرف كيف ترسّخ هذا، ولكنني مع الوقت عندما ذهبت إلى المدرسة عام 1930 كنت أعي أن الإنكليزي هو الرئيس الكبير (المعلم) وأولئك الذين يتمتعون ببشرة بيضاء مثله هم أيضاً «معلمون» وإن لم يكونوا (معلمين) كباراً لم يكن ثمة الكثير منهم، كانوا قرابة ثمانية آلاف.

كانوا يعيشون حياة باذخة ويقطنون في بيوت منفصلة عن بيوت الآسيويين، كما كانوا يسموننا آنذاك. وموظفو الحكومة لديهم بيوت أكبر في مناطق أفضل، ولديهم سيارات وسائقون وكثير من الخدم، ويأكلون أفخر الطعام مع كثير من اللحوم ومنتجات الألبان ويذهبون إلى بلادهم كل ثلاث سنوات حيث يمضون في إنكلترة ما بين ثلاثة وستة أشهر للتعافي من مناخ سنغافورة المنهك للجسم. وكذلك كان يذهب أولادهم إلى وطنهم كي يتعلموا هناك، وليس في مدارس سنغافورة. هؤلاء بدورهم كانوا يعيشون حياة باذخة.

كان طاقم المدرسين في (كلية رافلز) كلهم من البيض. وأفضل اثنين من خريجي المدرسة ممن يحصلون على الدرجات العليا في الفيزياء والكيمياء كانا يُعينان بصفة (مساعد مدرس) بمرتب أدنى كثيراً من المدرسين البريطانيين، وكانوا يُبعثون إلى لندن للحصول على درجة البكالوريوس (BS) من أجل الحصول على ذلك المنصب. وأحد أفضل الخريجين في وقته بالدرجة الأولى من شهادة التخرج في الاقتصاد، هو جوه كينغ سوي (الذي أصبح فيما بعد نائباً لرئيس الوزراء) كان مُدرساً وليس مُحاضراً.

لم يكن ثمة استياء أو امتعاض. فالوضع المتفوق للبريطانيين في الحكومة والمجتمع كان مجرد أمر واقع. وفي المحصلة فإنهم كانوا أعظم شعب في العالم. كان لديهم أكبر امبراطورية عرفها التاريخ امتدت عبر جميع المناطق عبر المحيطات الأربع والقارات الخمس. تعلمنا ذلك في دروس التاريخ في المدرسة. وقد كان لديهم من أجل فرض حكمهم في سنغافورة بضع مئات من الجنود، يتغيرون باستمرار. كان معظمهم يتواجد في مركز المدينة في (فورت كاينغ). ولم يكن عدد الموظفين يزيد على ما يتراوح ما بين ألف وألفي موظف لحماية الحكم الاستعماري علاوة على ما يتراوح بين ستة وسبعة ملايين آسيوي في (مستعمرات المضائق) في الدول المالوية. وكان البريطانيون ينشرون أن مالايا تحتاج إليهم لحماية المالاويين، الذين يمكن أن يُحجم دورهم على يد المهاجرين الأكثر جلداً ونشاطاً. وقد جُلب كثير من الصينيين والهنود من أجل الأعمال ذات المستوى المتدني و قبلوا بذلك لأن المالاويين لم يكونوا يرضون بالأعمال التي يستلزمها الاقتصاد التجاري أو الزراعي، كصناعة المطاط وبناء الجسور والطرق، بل يعملون ككتبة ومحاسبين وحراس متاجر. لم يكن يسمح إلا لعدد قليل من الآسويين البارزين بالاختلاط الاجتماعي مع أصحاب المصالح البيض، وكان بعضهم يُعَيّنون بصفة غير رسمية كأعضاء في مجلس الحاكم التنفيذي أو (المجلس التشريعي). وكانت صورهم تظهر في الصحف مع زوجاتهم، كما يحضرون الحفلات وأحياناً كانت النساء يلبسن القفازات البيضاء، ويتقيد الجميع بسلوك المجتمع الراقي. قلة منهم كانت تمنح لقب فارس (وهي مرتبة رفيعة يمنحها الملك) فيما يأمل آخرون أن يكرّموا بعد خدمة طويلة ومخلصة للامبراطورية. كانوا يكرمون بارتداء اللباس الأبيض الرسمي: ولكنهم يقبلون بالمراكز الأدنى برضى لأنهم يعتبرون أنفسهم أعلى من رفاقهم الآسيويين. وعلى النقيض من ذلك فإن أي بريطاني، أو أوروبي أو أمريكي يسيء التصرف أو يظهر بمظهر المتسكع كان يُبعد على الفور لأن ذلك سينتقص من مكانة كل العرق الأبيض الذي ينبغي ألا يكون تفوقه موضع شك أبداً.

نشأت على يدي أبوي وأجدادي على القبول بهذا النظام على أنه النظام الطبيعي للأمور. ولا أذكر أن أي مواطن قد تساءل عن هذا بالقول أو بالفعل. ولم يكن لدى ذوي الثقافة البريطانية أية نزعة للدفاع عن الآسويين باسم المساواة. ولم أكن أعرف آنذاك أنه كان يوجد كثير من الصينيين الذين درسوا في مدارس اللغة الصينية، والذين لم يتم دمجهم بالنظام الاستعماري. لقد جاء أساتذتهم من الصين وهم لا يعترفون بتفوق البيض، لأنهم لم يُربوا أو يرسّخ في أذهانهم القبول بفضائل الإمبراطورية البريطانية ورسالتها. ولقد تعلمت الكثير من مثل هذه الأمور بعد الحرب.

هذه كانت المالايا وسنغافورة اللتان هاجمهما ستون ألف جندي ياباني واحتلوهما رغم وجود أكثر من 130 ألفاً من القوات البريطانية والهندية والأسترالية. في سبعين يوماً من المفاجآت والحماقات والاضطرابات تبعثر المجتمع البريطاني الاستعماري وتبعثرت معه جميع الادعاءات بتفوق الرجل الإنكليزي.

كان من المفترض أن يصاب الآسيويون بالذعر والرعب عندما بدأ إطلاق النار، ولكنهم كانوا متحررين من الانفعال وقد تحملوا الخسائر الجسيمة وماتوا دون أن يصابوا بالهستريا. لقد كان زعماء المدنيين البيض هم من اختبأوا تحت الموائد عندما سقطت القنابل والقذائف. لقد كان الموظفون البيض وموظفو الحكومة في بيانغ هم، من اختفوا تحت جنح الظلام في السادس عشر من كانون الأول (ديسمبر) 1941، من الجزيرة من أجل «إنقاذ» سنغافورة، تاركين الآسويين وراءهم ليلاقوا مصيرهم. وهُجرت المشافي والمرافق العامة وإدارات الخدمات الأخرى بلا موظفين. ولم يكن هناك رجال إطفاء لإخماد النيران، ولا موظفون للإشراف على توزيع المياه. فرّ جميع البيض من أصحاب المسؤوليات. وقد أدى جبنهم هذا إلى أن ينظر إليهم الآسيويون على أنهم أنانيون وجبناء. ربما كان هناك بعض المبالغة فيما رُوي عنهم، ولكن بالمقابل كان هناك ما يكفي من أدلة على إثبات ذلك. البيض يفزعون عند الخسارة كما يفعل الآسيويون على أنهم يستحقون القيادة ولكنهم خذلوهم.

بنى البريطانيون أسطورة تفوقهم الموروث بطريقة شديدة الإقناع، بحيث أن معظم الآسيويين آمنوا بأنه لا أمل في تحديهم. أما الآن فقد تجرأ عرق آسيوي على هزيمتهم وتحطيم تلك الأسطورة. ولكن ما إن حكمنا اليابانيون الفاتحون حتى أظهروا لرفاقهم الآسويين أنهم كانوا أشد قسوة ووحشية وظلماً وفظاعة من البريطانيين. فخلال السنوات الثلاث والنصف من الاحتلال عندما كنت أصادف بعض اليابانيين يعذبون أو يضربون أو يسيئون معاملة أحد أفراد شعبنا كنت أتمنى لو أن البريطانيين ما يزالون يحكموننا. كنت كرفاقي الآسيويين مُضلّلاً، ولكن اليابانيين أنفسهم كانوا يخجلون من وصفهم بالآسويين لأنهم كانوا يعتبروننا أدنى منهم عرقياً وأدّى حضارة. إنهم ينحدرون من إلهة الشمس، أماتير اسوا أو ميكامي ساما، الشعب المختار، المتميز والمختلف عن الصينيين والهنود والمالاويين.

كانت مجابهتي الأولى مع جندي ياباني عندما حاولت أن أزور خالتي، شقيقة أمي الصغرى، في شارع كامبونغ جافا، في مواجهة الجسر الأحمر فوق قناة بوكيت تيماه. وفيما كنت أقترب من الجسر رأيت خفيراً يسير صعوداً وهبوطاً فوقه. وبالقرب منه مجموعة من أربع أو خمس جنود يابانيين جالسين، ربما كانوا الأفراد الآخرين في مفرزته. كنت ألبس قبعة مخططة من النوع الذي يلبسه الجنود الأوستراليون، الذين تفرق عدد كبير منهم في الأيام التي سبقت الاستسلام. التقطت تلك القبعة معتقداً أنها ستكون مفيدة في الأيام الصعبة القادمة لتحميني من الشمس.

مررت بالقرب من تلك المجموعة من الجنود، وحاولت أن أبدو غير مهتم قدر الإمكان ولكنني لفت انتباههم. وصاح أحد الجنود بي «كور،كور!» وأومأ إلي. وعندما وصلت إليه دفع حربة بندقيته نحو حافة قبعتي، وأزاحها بعيداً وصفعني بقوة، وجعلني أركع. ثم دفعني بكعب حذائه على صدري وجعلني أتدحرج على الطريق. وعندما نهضت أشار علي أن أعود إلى الطريق الذي جئت منه.

انسحبت بهدوء. كثير من الذين لا يعرفون قواعد اللياقة «الإتكيت» الجديدة ولا ينحنون أمام الجنود اليابانيين عند مفترق الطرق أو الجسور كان عليهم أن يجثوا على ركبهم لساعات تحت الشمس، وأن يحملوا جلاميد صخر ثقيلة فوق رؤوسهم حتى تتلاشى قواهم.

وبعد ظهر أحد الأيام فيما كنت جالساً في الشرفة في 28 شارع نورفولك رحت أراقب جندياً يابانياً يدفع لسائق عربة. احتج السائق وطلب زيادة المبلغ. أخذ الجندي ذراع الرجل، ووضعها فوق كتفه الأيمن وقذف به بقوة في الهواء بضربة جودو. وقع سائق العربة على وجهه. وبعد فترة تحامل على نفسه وراح يترنح بين عمودي عربته. صُدمت من فظاعة هذا المشهد.

وفي اليوم التالي كان علي أن أتعلم درساً آخر عند «الجسر الأحمر» كانت تتهادى سيارة جديدة على جناحها علم صغير أزرق مستطيل الشكل، إذكانت الأعلام الصفراء للجنرالات والحمراء للمقدمين والعقداء والزرقاء للملازمين والنقباء. تباطأ الخفير بعض الشيء في التقدم لأداء التحية. عبرت السيارة، ولكن السائق أوقفها وعاد بها إلى الوراء. وخرج منها أحد الضباط واقترب من الخفير وصفعه ثلاث صفعات قوية. ثم أخذ ذراعه الأيمن ووضعه وراء كتفه وضربه ضربة جودو كتلك التي تلقاها سائق العربة بالأمس، وأطاح بالرجل في الهواء. وقع الخفير على وجهه، كما فعل سائق العربة البارحة. هذه المرة أُصبت بقدر أقل من الذهول وبدأت أفهم أن الوحشية جزء من النظام العسكري الياباني الذي يمارس الضرب المبرح ضد من هم أدنى مرتبة.

وفي وقت متأخر من اليوم نفسه جاء إلى بيتنا ضابط لا يحمل رتبة عسكرية ومعه عدد من الجنود. فتشوا البيت ولم يجدوا إلا تيونغ كو وأنا. وقرروا أنه سيكون مأوى مناسباً للفصيلة. وكانت بداية الكابوس. كنت أعالج عند أطباء أسنان يابانيين وممرضاتهم في شارع براس باساه، وكانوا في منتهى النظافة والأناقة. كذلك كان البائعون والبائعات اليابانيات في مخازن العشرة سنتات في

«شارع ميدل». لم أكن معتاداً على رؤية أمثال هؤلاء الجنود الذين تفوح من أجسادهم رائحة القذارة. جالوا في جميع أرجاء المنزل والأرض التابعة له. راحوا يبحثون عن طعام فوجدوا ما كانت خزّنته أمي من مؤن. واستهلكوا كل ما وجدوه أمامهم. كانوا يطهون الأطعمة على مواقد في بهو المنزل. لم أجد لغة أتفاهم بها معهم. كانوا يؤشرون بأيديهم وبحركات من أنوفهم، وكنت إذا تلكأت قليلاً في تلبية طلباتهم ينهالون علي بالشتائم والصفعات. كانوا مخلوقات عجيبة، شُعّثاً وذقونهم طليقة، يتحدثون بلغة عدوانية قبيحة. أشعروني بخوف شديد. نمت نوماً متشنجاً ومتقطعاً. ولم يرحلوا عنا إلا بعد ثلاثة أيام من الجحيم.

فيما كانت هذه السريّة اليابانية تعسكر في بيتنا، كانت قوات بريطانية وهندية وأستراليا تُقاد إلى الأسر. بدأت المسيرة في السابع عشر من شباط (فبراير) 1942 وظلت مستمرة مارة بالقرب من المنزل وفوق (الجسر الأحمر) لمدة يومين وليلة في طريقها إلى تشانغي. جلست في الشرفة لساعات طويلة أراقبهم، وقلبي مثقل بالألم. كان مشهد جيش مستسلم مشهداً يبعث بالحزن والألم.

كان بعضهم جديراً بالاحترام والإعجاب. ومن بينهم سكان جبال اسكوتلنده الذين كنت أميزهم من قبعاتهم الاسكتلندية. فعلى الرغم من الهزيمة كانوا منضبطين إذ يمشون بحسب الإيعازات. ومثلهم كان الغوركاه في انضباطهم. كنت أحيّيهم سراً. لقد تركوا في نفسي انطباعاً لا ينسى. وفي النتيجة استخدمت حكومة سنغافورة فرقة من الغوركاه في شرطة مكافحة الشغب منذ فترة الستينيات حتى يومنا هذا.

أما الأستراليون فقد كانت معنوياتهم منهارة ولا يمشون بخطى منتظمة. كذلك بدت لي القوات الهندية فاقدة للروح المعنوية وواهنة العزيمة. لا بد أنهم كانوا يشعرون أن المعركة ليست معركتهم.

بعد رحيل الجنود اليابانيين عن بيتنا بقليل انتشر خبر في المنطقة ألا وهو أن على جميع الصينيين أن يذهبوا إلى مركز التسجيل في ميدان «جالان بيسار» للفحص. رأيت جاري وعائلته يغادرون ورأيت من الحكمة أن أغادر أنا أيضاً لأن

الشرطة العسكرية اليابانية إذا اكتشفت أنني في البيت فسوف تعتقلني. لذا اتجهت إلى جالان بيسار بصحبة تيونغ كو. ولكننا لم نتمكن من المغادرة بسبب الازدحام. فعشرات الآلاف من العائلات الصينية كانت قد احتشدت هناك في تلك المنطقة الصغيرة. وجميع نقاط الخروج كانت تحرسها الشرطة العسكرية اليابانية ـ الكيمبيتاي Kempeitai ـ وكان معهم كثير من المواطنين المحليين أو التايوانيين. وقد أخبرت فيما بعد أن جميعهم كانت رؤوسهم مغطاة، مع أنني لم ألاحظ ذلك.

وبعد أن أمضينا ليلة في مهجع تيونغ كو عزمت على أن أغادر المكان من خلال نقطة الخروج، ولكن بدلاً من أن يسمح لي الجندي بالمرور أشار إلي أن أنضم إلى مجموعة الصينيين الشباب. شعرت غريزياً أن هذا ينذر بالسوء، لذا طلبت الإذن بالعودة إلى المهجع لأجمع أغراضي. وأذن لي بذلك. عدت واضطجعت في مهجع كيونغ كو لفترة يوم ونصف. ثم حاولت الخروج ثانية. في هذه المرة سُمح لي لسبب لم أعرفه بالمرور عبر نقطة التفتيش. ووضع (ختمٌ) على أعلى ذراعي الأيسر، وعلى مقدمة قميصي.

وكانت عبارة (كانجي) أو (جيان) التي ختمت على قميصي بالحبر تعني أنني (فُتّشت) وهي دليل على أنني قد أفرج عني. وعدت إلى البيت مع تيونغ كو بشعور كبير من الارتياح. لا يمكن أن أفهم أبداً كيف تتخذ القرارات المتعلقة بالحياة والموت بهذه الطريقة العَرضية أو النزوية. كان أمامي فرصة ضيقة للنجاة من تجربة تدعى (سوك تشينغ) وتعني (محق) الثوَّار، وهي عقوبة يفرضها العقيد ماسانوبو ياماشيتا، قائد القوات اليابانية، لمعاقبة الصينيين في سنغافورة لجمعهم الأموال لتأييد المجهود الحربي الصيني ضد اليابانيين، ولمقاطعتهم للبضائع اليابانية.

كان لديه حساب آخر لتصفيته ـ مع (دالفورس)، التي كانت جزءاً من فيلق تطوعي صيني مؤلف من ألف مقاتل من مقاتلي عبر البحار، نظمه زعماء الجماعة المحلية في سنغافورة لمقاومة اليابانيين. وقد وُضعوا جميعاً تحت قيادة

العقيد جون والي، عن الوحدة الماليزية الخاصة، والتي ضمت صينيين من مختلف المشارب، من مؤيدي حزب الكومنتانغ القومي (KMT) التابع لشيانغ كاي تشيك، ومن مؤيدي الحزب الشيوعي المالاوي (MCP)، بما في ذلك خمس مائة شيوعي حررهم البريطانيون من السجن في الساعة الحادية عشرة، ولما كان هؤلاء المتطوعون مسلحين فقد أرسلوا لاحتلال الأراضي الواقعة شرق نهر كرانج على جناح اللواء الأوسترالي السابع والعشرين. قاتلوا بوحشية، ومات منهم كثيرون وكذلك مات كثير من اليابانيين. لقد جعلوا من (دالفورس) أسطورة واسماً يرمز للشجاعة.

وفي الثامن عشر من شباط (فبراير)، نشر اليابانيون إعلانات، واستخدموا مكبرات الصوت في أرجاء المدينة كي يخبروا الصينيين أن جميع الرجال ما بين سن الثامنة عشر والخمسين يتوجب عليهم الحضور شخصياً في خمس مناطق للتجمع من أجل التفتيش. وراحت الشرطة العسكرية اليابانية (كيمبتاي) المرهوبة الجانب تفتش بيتاً بيتاً كي تُخرج الصينيين الذين لم يحضروا إلى مراكز التجمع، حيث النسوة والأطفال والشيوخ سِيقوا أيضاً كالقطعان. واكتشفت فيما بعد أن أولئك الذين اعتقلوا عشوائياً عند نقاط وصل التفتيش التي مررت بها قد نقلوا إلى باحات مدرسة (فكتوريا) وأُحتفظ بهم حتى الثاني والعشرين من شباط (فبراير) إلى أن وصل ما بين أربعين وخمسين سيارة شحن لجمعهم. كانت أياديهم مربوطة خلف ظهورهم ونُقلوا إلى شاطئ «تاناه ميراه بيسار» الذي يبعد حوالي عشرة أميال عن الشاطئ الشرقي قرب (سجن تشانغي) أجبروا على الترجل، وهم موثَقون جميعاً مع بعضهم بعضاً، وأكرهوا على السير باتجاه البحر. وفيما هم يسيرون كانت الرشاشات اليابانية تحصدهم. وبعد ذلك، ومن أجل التأكد من مصرعهم كان يتعرض كل واحد منهم للرفس أو الإيذاء بطرق أخرى. ولم تجرِ أية محاولة لدفن الجثث التي تركت حتى تذوب وتتحلل. واستطاع قلة منهم أن يفروا بأعجوبة كي يحكوا عن ذلك التعذيب الشنيع.

أقر اليابنيون أنهم قتلوا ستة آلاف شاب صيني في ذلك المكان (سوك تشينغ) في الفترة ما بين الثامن عشر والثاني والعشرين من شباط (فبراير) 1942. وبعد الحرب اكتشفت لجنة من غرفة التجارة الصينية عدة مقابر جماعية في (سيغلاب) و(بنغول) و(تشانغي). وقدّر عدد القتلى ما بين خمسين ألفاً ومئة ألف.

يستطيع الجيش الامبراطوري نظرياً، أن يبرر هذا العمل بأنه عملية لحفظ النظام والقانون، وقمع المقاومة ضد اليابانيين ولكنه كان انتقاماً فاضحاً لم يمارس أثناء معركة، ولكنه مورس عندما كانت سنغافورة قد استسلمت. وحتى بعد تلك المذبحة في (سوك تشينغ) جرت عدة عمليات اعتقال في المناطق الريفية، ولاسيما في الجزء الشرقي من سنغافورة، وأعدم مئات آخرون من الصينيين. جميعهم من الشبان والرجال الأشداء الذين يمكن أن يسببوا الاضطراب والمتاعب

عندما عدت إلى شارع نورفولك، وجدت المنزل كما تركه اليابانيون على حالة من الفوضى والقذارة. ولكنه لم يهدم وبعض حوائجنا ظلت على حالها. وبعد عدة أيام عادت أسرتي من «تيلوك كوارو». ورحنا ننظف البيت جميعاً. وبدأنا نتعرف ببطء على بؤس الاحتلال الياباني الذي كان قدر أهالي سنغافورة للسنوات الثلاث ونصف القادمة.

خلال أسبوعين من الاستسلام سمعت أن اليابانيين قد وضعوا سياجاً خشبياً حول بيوت المدينة إلى شارع كيرنيهيل، الذي كان يقطنه رجال الأعمال البريطانيون والآسيويون وعائلاتهم الذين غادروا سنغافورة أو كانوا معتقلين. إنها منطقة الطبقة المتوسطة الراقية. تجولت ثمة بالدراجة ورأيت صفوفاً طويلة من الجنود اليابانيين يمشون على طول «كيرن هيل» خارج السور. وسمعت من المقيمين قريباً أنه توجد في الداخل نسوة يابانيات وكوريات التحقن بالجيش لخدمة الجنود قبل وبعد المعركة. كان مشهداً عجيباً، صف من مئة أو مئتي رجل

ينتظرون دورهم لم أرَ أية أمرأة ذلك اليوم. ولكن كانت هناك لوحة عليها كتابة بالصينية قال الجوار إنها تعني «بيت الراحة». مثل هذه البيوت كانت قد أنشأت في الصين. والآن انتقلت إلى سنغافورة. كان هناك أربعة بيوت أخرى على الأقل. وأذكر أنني مررت بالدراجة بالقرب من أحد تلك البيوت في شارع تانجونغ كاتونغ، حيث يحيط سور خشبي بحوالي عشرين إلى ثلاثين بيتاً منها.

ظننت آنذاك أن الجيش الياباني لديه موقف عملي وواقعي من مثل هذه المشكلات التي تختلف تماماً عن مشكلات الجيش البريطاني. تذكرت العاهرات على طول شارع واترلو وهن يغرين الجنود البريطانيين المرابطين عند «فورت كاننغ». لقد اعترفت القيادة اليابانية بالاحتياجات الجنسية للرجال ولبتها. ونتيجة لذلك لم تكن حوادث الاغتصاب كثيرة. في الأسبوعين الأولين من الغزو كان الناس في سنغافورة يخشون أن يقتحم الجيش الياباني المدينة برغبة وحشية. ورغم حصول حالات من الاغتصاب فقد كان معظمها في المناطق الريفية، ولم يحدث أي شيء كالذي حدث في تانكين عام 1937. وأعتقد أن بيوت الراحة تلك كانت هي التفسير. لم أكن أعلم آنذاك أن الحكومة اليابانية كانت تخطف النساء الكوريات والصينيات والفيلبينيات من أجل أن ترضي حاجات الجنود اليابانيين في جبهة القتال في الصين وجنوب شرق آسيا. كذلك استخدموا نسوة هولنديات لخدمة الضباط اليابانيين.

أولئك الذين ينتمون إلى جيلي ممن رأوا الجنود اليابانيين أثناء القتال لا يمكن أن ينسوا موقفهم اللإنساني من الموت في المعركة. لم يكونوا يخشون الموت. كانوا أعداء مرعبين، ولا يحتاجون إلا إلى القليل للاستمرار في القتال ـ فالأوعية المعلقة على جيوبهم لم تكن تحتوي إلا على القليل من الأرز وبعض حبات الصويا والسمك المملح. وطوال فترة الاحتلال كان من المشاهد المألوفة رؤية الجنود اليابانيين يجوبون الحقول بحرابهم. وإذا ما أعاد البريطانيون غزو البلاد وحاربوا على طريقتهم في الملايو وسنغافورة لحَلَ بالبلاد دمار فظيع.

بعد أن رأيتهم في الأحياء الضيقة بتُّ متيقناً أنهم أصحاب روح معنوية قتالية هي الأقوى في العالم. ولكنهم كانوا يظهرون الدناءة والوحشية تجاه أعدائهم كما كان يفعل المغول. ما كان بوسع جينكيز خان وقبائله أن يكونوا أشد وحشية. وليس عندي شك في أن القنبلتين الذريتين اللتين أسقطتا على هيروشيما ونازاكي كانتا ضروريتين. إذ لولاهما لقتل مئات الألوف من المدنيين من سكان المالايا وسنغافورة، والملايين من اليابانيين أنفسهم أُبيدُوا عن بكرة أبيهم.

ما الذي جعل منهم محاربين على هذه الشاكلة؟ اليابانيون يدعون ذلك (البوشيدو) رمز الساموراي أو «نيبون سيشين»، أي روح «نيبون». أعتقد أنه تشرب منظم لمبادئ عبارة الامبراطور، وإيماناً بالتفوق العرقي كشعب مختار يستطيع أن يقهر الجميع. كانوا على قناعة أن الموت في المعركة من أجل الإمبراطور يعني أنهم سيرتفعون إلى السماء ويصبحون آلهة، في حين يحتفظ برفاتهم (رمادهم) في «مزار ياسوكوني» المقدس في ضواحي طوكيو.

كان لا بد أن تستمر الحياة اليومية تحت ظل الاحتلال الياباني. وفي البداية شعر كل امرئ بالضياع، لم يكن لدى والدي عمل، وأنا لا كلّية لي، وإخوتي الثلاثة وأختي كانوا بلا مدرسة كان ثمة نشاط اجتماعي ضئيل. كنا نشعر بالخطر من حولنا. ومعرفة شخص ما في السلطة، سواء أكان يابانياً أو مترجماً تايوانياً له صلات باليابانيين، أمر بالغ الأهمية ويمكن أن يكون عامل إنقاذ للحياة. فملاحظة مع توقيعه وخاتمه فوقها تشهد بأنك مواطن صالح وتمنحك ميزة جيدة. وهذه وثيقة جيدة إذا ما أوقفت بسبب ما أو فُتشت من قبل الحراس. ولكن الأسلم أن تبقى في البيت وتتجنب الاتصال أو النزاع مع السلطة.

أحد رفاقي كان في المدينة، مشيت قرابة ميلين حتى أصل إلى مكتبات الكتب المستعملة في شارع (براس باساه) المختص بالأدوات المدرسية. وفي طريقي رأيت جمهرة قرب المدخل الرئيس لسينما الجمهور ورأيت رأس رجل صيني مُدلّى من على عمود صغير، وكان بقربه لوحة كتب عليها كلمات صينية. لم أكن أعرف اللغة الصينية، ولكن أحدهم شرح معنى العبارة وهي تتضمن ما لا ينبغي للمرء فعله كي لا يلقى المصير ذاته.

لقد شنق الرجل لأنه ضبط يسرق، وكل من يخرق القانون سيعامل بالطريقة نفسها. غادرت المكان بشعور الخوف من اليابانيين، ولكنني في الوقت نفسه فكرت في أنها ستكون صورة رائعة للنشر في مجلة (لايف) (Life). المجلة الأمريكية التي ستدفع بسخاء لمثل هذه الصور الحية للتناقض: أحدث بناء في سنغافورة وإلى جانبه مشهد لعقوبة القرون الوسطى ولكن المصور سيلاقي النهاية ذاتها التي تلقاها السارق المقطوع الرأس.

كنت أفكر في هذا المشهد المروع وأنا أسير في طريقي في شارع براس باساه لأنني قررت أن أتعلم الصينية كي أتثقف بما يكفي كي أفهم مثل هذه الجمل والعبارات. لم تكن للغتي الإنكليزية قيمة في ظل الحكام الجدد. وسيكون تعلم الصينية أفضل من تعلم اليابانية، لأنها على الأقل لغتي، وليست لغة غازٍ كريه. إذ اشتريت كتاب تشاينغ كيرتشيو (الماندرين الميسّرة) وهو كتيب من ثلاثين صفحة لتعليم الصينية، يعلم قرابة 700 تركيب صيني أساسي، وكيف تكتب وكيف تستخدم مع بعضها بعضاً. أنجزت ذلك في أسبوعين وانتقلت إلى الجزء الثاني المتقدم. وبعد ذلك اشتريت سلسلة من أربع كتب نشرتها مدرسة صينية في شارع برينسيب، وهي ذات مرتبة رفيعة. ورحت أقرأ فيها كل يوم، وأمضيت الأشهر القليلة التالية وأنا أتمرن على كتابة ما بين 1200 و1500 رمز محاولاً أن أطبع معانيها في ذاكرتي. ولكنني لم أستطع أبداً أن أتعلم كيف تلفظ. ففي اللغة الصينية الشمالية (ماندرين) لكل واحدة أربع نبرات. كتابي يشير إليها ولكن لم أعرف كيف ألفظها، ولم يكن ثمة من يعلمني. في وجه هذه الصعاب كانت مقاومتي لتعلم اليابانية تضعف مع مضي الأشهر. اكتشفت أنها لا تشبه الصينية وحدها فلها نظام أبجدي مقطعي مكتوب بنصين: كاتاكانا وهيراجانا. لو أن اليابانيين كانوا سيبقون في سنغافورة كسادة ومعلمين للسنوات القليلة القادمة، وكان عليّ البقاء هنا، لكنت تعلمت لغتهم.

ومع هذا فقد انتسبت في أيار (مايو) 1942 مع الدفعة الأولى من الطلاب إلى مدرسة اللغة اليابانية التي فتحتها السلطات المعنية في (شارع الملكة). كانت دورة من ثلاث أشهر. الطلاب من مختلف الأعمار والقدرات، بعضهم من المدارس

الثانوية، وبعضهم من الكليات مثلي، وبعضهم من العمال اليافعين في العشرينيات من العمر. نجحت في الامتحان وحصلت على شهادة. وجدت اليابانية أسهل من لغة (الماندرين) لأنها ليست منغّمة، ولكنها أصعب في التصريف والقواعد.

سقط جدي من أبي، لي هون ليونغ، فريسة لمرض شديد في شهر تموز، وبعد ثلاثة أسابيع من تخرجي توفي. وكنت قبل وفاته قد زرته عدة مرات في شارع براس باساه، حيث كان يعيش مع ابنته بالتبني. حزنت لحاله حزناً عميقاً. لم يكن مريضاً فحسب، ولكن كُتب عليه أن يشهد عالمه يتحطم: فالبريطانيون وكل ما دافعوا عنه بات نهباً للهزيمة والإذلال. البحرية البريطانية وقباطنة سفنها، ونظامها، وتفوقها في البحار - كلها تلاشت على يد اليابانيين ذوي الشكل الغريب. إنه لا يستطيع أن يفهم كيف يستطيع شعب قذر أن يهزم الضباط الإنكليز المرفوعي الرأس. كيف استطاعوا أن يغرقوا السفينتين (برنس أوف ويلز) و(ريبالز)، وأن يشتتوا الأسطول البريطاني ويسقطوا سلاح الجو الملكي، ويأسروا /130/ ألف جندي، بجنودهم الستين ألفاً فقط بعد حصار لسنغافورة لم يستغرق سوى أسبوعين فحسب؟! كنت أراقبه وهو غارق في غيبوبته، وشعرت أنه كان من الأفضل أن يموت قبل أن يشهد ذلك كله.

صِلاته الجيدة في سنغافورة تحت الاحتلال البريطاني قد ولت، ولكن كان له صديق ياباني واحد يدعى السيد شيمودا الذي التقاه والدي بعد أيام من وفاة كونغ. صعوبات الاحتلال أرهقت والدي. فأصبح أكثر مسؤولية في أيام صعبة. وقد حصل على عمل في دائرة عسكرية مسؤولة عن تموين الوقود، كما حصل لي على عمل.

بناء على طلبه، ودون علم جدي، قدم لي شيمودا عملاً في العالم الجديد الذي بات اليابانيون سادته. عملت في شركته كاتباً لمدة عام، أنسخ الوثائق لأغراض العمل الداخلية وأقوم بالمراسلات مع الشركات اليابانية. وعندما أفلست الشركة (شيمودا وشركاه)، انتقلت إلى الجانب الآخر من منطقة رافلز،

حيث حصلت على عمل آخر وهو الطباعة على الآلة الكاتبة في شركة (كومياي) التي تبيع المواد الغذائية الأساسية كالأرز والزيت، والسكر والملح والتبغ ولفائف التبغ. كان يدفع لي راتبي بعملة تطبعها الإدارة العسكرية اليابانية مرسوم عليها أشجار جوز الهند والموز. (أوراق الموز) هذه، كما كنا نسميها، لم تكن ذات أرقام متسلسلة، وكانت قيمتها تتدنى شهراً بعد آخر. كان راتبي يُدفع لي عينياً. أي ما يقارب 10 كانتيس (15جنيهاً) من الرز والسكر والزيت، والأهم من ذلك، لفائف التبغ. هذه السلع كانت أفضل من النقود اليابانية، إذ أنها مع مرور الوقت كانت تصبح أكثر ندرة وتزداد قيمتها أكثر فأكثر من (أوراق الموز).

عملت في (كومياي) فترة ثمانية أشهر، حتى أواخر عام 1943، عندها قرأت إعلاناً في جريدة (سيونان شيمبون) نشرته دائرة الاستعلامات والدعاية اليابانية التي تدعى (هوردبو) والتي كانت موجودة في مبنى (كاثاي) إذ كانوا يطلبون محررين باللغة الإنكليزية. فأجريت مقابلة مع ياباني أمريكي المولد، يدعى جورج تاكيمورا، وهو رجل طويل نحيل أبيض البشرة يتكلم الإنكليزية بلكنة أمريكية، وكان رفاقه يسمونه جي ـ أده ـ جي. لم يكن يرتدي البزة العسكرية اليابانية، ولكنه مدني في دائرة عسكرية، وعلى بزته خمس نجوم زرقاء، أي ما يعني أنه برتبة رقيب. كان لطيف الحديث لبقاً. كان راضياً عن لغتي الإنكليزية، وكنت سعيداً بأن أجد عملاً في مكان مناسب.

كان عملي أن أتابع برقيات وكالات أنباء الحلفاء: رويتر، UP، AP، وكالة الصين المركزية للأخبار، ووكالة تاس. وكانت هذه البرقيات ترسل بلغة مورس حيث يستقبلها العاملون في إذاعة الملايو. لم تكن إشارة الراديو واضحة في الأوقات المتأخرة من بعد الظهر وبداية الأمسيات، ولما كان الاستقبال سيئاً كان يطمس أو يضيع الكثير من الكلمات المتقاطعة. هذه البرقيات يجب أن تلتقط من جميع جبهات المعركة وتفحص وتدقق وترسل من الطابق العلوي في (بناء كاثاي) إلى الطابق الأرضي حيث يعاد إعدادها من أجل الإذاعة. عملت هناك فترة 15 شهراً حتى نهاية 1944.

كانت حياة غريبة. كان عملي يبدأ في الساعة السابعة بعد الظهر بتوقيت طوكيو الذي يعادل الخامسة والنصف بعد الظهر في سنغافورة، حيث ما يزال الوقت نهاراً. كان استقبال الراديو ضعيفاً حتى قرابة منتصف الليل بتوقيت طوكيو. لذا فإن فترة المناوبة ما بين السابعة مساء والثانية عشرة صباحاً كانت الفترة الأصعب، ولكن المرء يستطيع أن يذهب إلى النوم مباشرة. أما الفترة من الثانية عشرة صباحاً حتى التاسعة صباحاً فكانت مقسمة إلى مناوبتين بينهما فسحة لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. الاستقبال أفضل، والأخطاء أقل، ولكن هذا كان يعني النوم في أوقات غير مناسبة.

كان لدينا رئيسا تحرير في كل وجبة عمل. وكان جورج تيكمورا الذي يرتدي عادة لباسه الرسمي بدون جاكيت بسبب الطقس الحار والرطب يأتي عدة مرات في المساء كي يعطي رئيس التحرير الآخر ويعطيني علبة من لفائف التبغ اليابانية من حصته. كان عليّ أن أبقى متيقظاً أخطف بعض النوم من الرابعة حتى السادسة صباحاً بالترتيب مع زميلي المحرر، ثم أعمل حتى التاسعة صباحاً عندما تتدهور الأمور مرة أخرى. أصبح استقبال الإذاعة أمراً ميئوساً منه في الشمس. كنت أمشي ميلاً ونصف من مبنى «كاتي» إلى «شارع نورفلك» من أجل وجبة ما بعد الصباح ثم أعود إلى السرير في وضح النهار من أجل ساعتين أخريين للنوم.

الشيء الغريب في نظام عملنا هو الانطباعات النفسية للعمل. كنت أصغي للأخبار طوال أربع ساعات عن سير وقائع الحرب التي كانت تجري لغير صالح اليابانيين، كما هو الحال أيضاً بالنسبة للألمان والإيطاليين. ولكننا كنا نتحدث عن هذا إلى من هم خارج العمل بشعور مفعم بالخطر ففي الطابق الأرضي من (مبنى كاثاي) كان هناك فرع لـ (كيمبيتاي) (مخابرات). وكل فرد يعمل في هذه الدار (هوروبو) له مصنف ومهمة (الكيمبيتاي) هي التأكد من عدم تسريب أي شيء من جانب الموظفين.

منذ نهاية 1943، أصبح الطعام يزداد ندرة. وكانت البحرية اليابانية قد تكبدت هزائم وخسائر باهظة في معارك (ميد واي) وبحر كورال. إذ فقدوا السيطرة على المحيطات وأغرقت سفنهم من قبل غواصات الحلفاء. وحتى تايلاند، المصدر التقليدي للأرز، لم يعد بوسعها تصدير الأرز إلى سنغافورة، إما لأن اليابانيين لم يريدوا أن يدفعوا للتايلانديين ثمنها أو لأنها لم تستطع نقل الأرز إلى الجزيرة. كان علينا أن نجد بدائل عن الأطعمة التقليدية. وكانت أمي تحضر لنا ككثير من النساء الأخريات ما يتيسر من خضار وذرة وبطاطا. كنا نشعر بالجوع نظراً لفقدان اللحم الذي بات عزيز المنال. كان هناك القليل من لحم البقر والخنزير. وكان بوسعنا أن نربي الدجاج ولكن من أين نحصل على العلف اللازم لها؟.

كان دهاء أمي موضع امتحان عسير أثناء فترة الاحتلال. فعندما أصبحت رواتب والدي، وأخي دينيس وراتبي ضئيلة بسبب التضخم، باتت تجرب جميع الأعمال. كابنة تنتمي إلى أسرة ستريتس صينية، كانت قد تعلمت كيف تطهو وتخبز. وها هي الآن تصنع الكعك لبيعه. وسرعان ما أصبح الدقيق والزبدة من الأشياء التي لا يمكن الحصول عليها، لذا فقد عمدت إلى استخدام أنواع أخرى من الدقيق وحليب جوز الهند وسكر النخيل. كما كانت تصنع لنا حلوى من الحليب المكثف والطازج. كانت طاهية ماهرة. وفيما بعد، عندما أصبحت رئيساً للوزراء كانت تملأ وقتها بتعليم نساء ستريتس شؤون الطبخ، بمن في ذلك زوجات الدبلوماسيين. ووضعت كتاباً عن الطبخ بعنوان (كتاب السيدة لي في شؤون الطبخ) الذي بيع على نطاق واسع حتى بعد وفاتها.

كل شيء كان بالتقنين، اختفت الدراجات النارية، باستثناء تلك التي يستخدمها العسكريون والمدنيون اليابانيون المهمون. والقلة من الناس التي كانت تملك سيارات لم يكن بوسعها أن تملأها بالوقود. وباتت سيارات النقل (التاكسي) تعمل بوقود الحطب. وسرعان ما نضبت عجلات الدراجات المطاطية

واضطر المصنعون المحليون إلى صنع إطارات صلبة بدلاً من الركوب على إطارات مطاطية. كذلك بات النسيج نادراً، لذا كنا نضطر إلى تحويل أقمشة الستائر ومفارش الطاولات إلى بنطلونات وقمصان. كما أصبحت جميع المواد المستوردة نادرة وارتفعت أسعار المشروبات واقتصر بيعها على تجار السوق السوداء وعلى الضباط اليابانيين. في تلك الأثناء كان التضخم يزداد شهراً بعد شهر، وفي منتصف 1944 لم يعد بالإمكان العيش اعتماداً على راتبي. ولكن ثمة حل لهذا. فمع أنني كنت أتلقى إعانة من الأرز والزيت والسجائر وبعض المواد الغذائية الأخرى فقد كان من الأفضل أن أبيعها في السوق السوداء. وكان ثمة تجارة رابحة من بيع الأدوية البريطانية التي تتناقص باستمرار، ومعظمها من موجودات ما قبل الحرب. وكان أثمنها السلفاميد بريدين MCB ـ 693 وبين الأشياء الثمينة الأخرى المشروبات الروحية كالويسكي (جوني ووكر) والبراندي ولفائف التبغ الإنكليزية وغيرها.

كان السماسرة يعملون بالدرجة الأولى في شارع تشوليا أو هاي ستريت، خارج منطقة رافلز. انضممت إليهم عام 1944، وتعلمت كيف أختزن المواد، ولاسيما القطع الصغيرة من المجوهرات الرخيصة. كنت أشتريها وأحتفظ بها لبضعة أسابيع، ثم أبيعها عند ارتفاع الأسعار إذ من السهل أن يكسب المرء المال إذا عرف كيف يقيم علاقات حسنة. وكانت أمي تعرف الكثير من النساء ذوات الأسر الغنية سابقاً ممن كن يحتجن إلى بيع مجوهراتهن وحاجياتهن الشخصية في سنغافورة حيث يشح الطعام. والسماسرة الذين هم على شاكلتي كانوا يبيعون هذه الأشياء في مناطق أخرى ولاسيما إلى اليابانيين المدنيين الذين كانوا مستعدين لبيع أقراط الموز من أجل الحصول على أشياء تدوم طويلاً.

مفتاح البقاء هو الارتجال. أحد الأعمال التي قمت بها وغيّرت مجرى حياتي، هي أنني في أثناء عملي في السوق السوداء قابلت يونغ نيوك لين، وهو خريج من كلية رافلز في العلوم والذي كان يعمل لدى (شركة عبر البحار للتأمين) مع اثنين

من (الهاكاس)، وهما أيضاً من خريجي كلية رافلز، ومعهما أخوهما الأكبر. المتجر كان مكاناً للقاء السماسرة من أمثالي ممن يتاجرون بقطع المجوهرات الصغيرة. وكنت من قبل قد سألت عن الأخوين باساري، وهما هنديان يقيمان في شارع (تشوليا)، ما إذا كنت أستطيع أن أشتري لهما مادة الصمغ للأغراض المدرسية، والتي كانت نادرة ـ لم يتبقّ منها إلا القليل من مخزّنات فترة ما قبل الحرب. هل أستطيع أن أصنعها بنفسي؟ سألت نيوك لين ما إذا كان يستطيع ذلك. فقال: إنه يستطيع ذلك باستخدام دقيق النشاء وحامض الكربون وقمت بتمويل تجاربه.

وأعجبتني فكرته. وقام صديقي بالتجربة بنجاح، وصبّ الصمغ في زجاجات. وقمت بتسويق مادة الصمغ تحت اسم (ستيكفاس) وزيّنا الزجاجة بغلاف ورقي جذاب.

تحوّل الصمغ إلى مادة رابحة، ورحنا نحضّره في مركزين: في بيتنا بمساعدة أمي وأختي، وأما المركز الثاني فكان في بيت نيوك، بمساعدة زوجته وأختها، كواجيوك تشو التي كانت متقدمة عليّ في (كلية رافلز). رأيتها ثانية عندما ذهبت أول مرة راكباً دراجتي ذات الإطارات القوية، إلى شقة نيوك لين في منطقة تيونغ باهرو. كانت جالسة في الشرفة عندما وصلت، وعندما سألت عن نيوك أشارت إلى الدرج عند الزاوية، وصرنا نتقابل في ظروف مختلفة. كانت تقوم بالأعمال المنزلية في البيت لعدم وجود خادمات، وكانت صناعة الصمغ تدر عليها نقوداً كثيرة، ونمّت زياراتي لمراقبة الإنتاج صداقتنا على مر الشهور.

وفي أيلول (سبتمبر) من عام 1944 ازدادت معرفة أحدنا بالآخر، حيث دعوت نيوك لين وزوجته وجيوك تشيو (التي صرت أناديها بتشو) إلى حفل عشاء بمناسبة عيد ميلادي الحادي والعشرين في المطعم الصيني في حديقة الملاهي (العالم العظيم). كانت أول مرة أدعوها فيها إلى خارج المنزل. صحيح أنها كانت برفقة صهرها، ولكن في سنغافورة في ذلك الوقت كان قبول فتاة لدعوة من شاب في الحادية والعشرين من العمر إلى حفل عشاء، حدثاً ذا دلالة.

استمرينا في صنع الصمغ لحوالي ستة أو سبعة أشهر حتى نهاية 1944. وفي ذلك الوقت كانت الحرب تجري لغير صالح اليابانيين. لم يكن يصل إلى الجزيرة إلا القليل من السفن، والتجارة كاسدة، وتراجعت الأعمال ولم يعد أحدٌ يطلب الصمغ. فتوقفت عن صنع الصمغ ولكنني استمريت في زيارة تشو في بيتها في تيونغ باهرو كي أتحدث إليها ولكي تستمر صداقتنا.

في أيار (مايو) أخفقت محاولة اليابانيين لغزو الهند من بورما في إمفال وكوهيما. في هذه المرة كان اليابانيون هم من هُزموا. إذ قاتلوا بعناد وشراسة وهم ينسحبون. وقد قرأت بعض الأخبار عن مقاومتهم العنيدة فيما كان البريطانيون يتقدمون نحو ماندالاي وشاطئ أركان. وكنت متأكداً أن البريطانيين سرعان ما سيشقون طريقهم إلى شبه الجزيرة الماليزية بالطريقة ذاتها، وبينما اليابانيون يقاتلون حتى آخر رجل، خشيت من إعادة احتلال سنغافورة الذي سيعني قتالاً من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، حتى النهاية المرّة مع وقوع خسائر كبيرة في صفوف المدنيين. كان ذلك مسألة وقت ـ سنة أو سنتين.

فوجدت من الأفضل أن أغادر سنغافورة فيما الأمور ما تزال هادئة، وأستطيع الاستقالة من (هودوبو) بدون إثارة الشك حول دوافعي. قدمت طلب الاستقالة وذهبت إلى ملايا لكي أستطلع بيناناغ، و(كاميرون هايلاندز) لأعرف أيهما أكثر أمناً. سافرت من سنغافورة إلى بيانغ ثم إلى تاباه بالقطار، ومن تاباه إلى (كاميرون هايلاندز) في شاحنة لنقل الخضروات حيث وجدت مكاناً جانب السائق. وبعد ليلتين قضيتهما بالكاميرون، عدت إلى تاباه بالطريقة ذاتها. كانت رحلة مروّعة. كان السائق يطفئ المحرك توفيراً للوقود ويترك الشاحنة تنحدر في الطريق لمدة ساعتين ونصف أسفل الهضبة في طريق متعرج.

أقمت في بيانغ مع هون سيوسين في عام 1942. كان هون، بعد أربعة أشهر من احتلال سنغافورة، قد أرسل زوجته وطفليهما إلى بيانغ فنزلوا لدى عائلتي في شارع (نورفولك) كضيوف يدفعون أجرة. تقاسمنا الغرفة وأصبحنا

صديقين، ولكن بعد تسعة أشهر قرر أن يغادر سنغافورة. كان أفضل الخريجين في العلوم من تلك السنة، وأحد اثنين يتطوعان سنوياً في الخدمة المدنية (لمستوطنات ستريتس) (أصبح فيما بعد وزيراً للمالية). ولكن راتبه الشهري كان ضئيلاً وغير كافٍ، ولم يكن بوسعه أن يعيل عائلته وهكذا انضم إليها في بيانغ. مع أنني لم أشاهد إلا قليلاً من النشاط العسكري فقد تجولت في بيانغ. إنها ستكون ركيزة منطقية للقوات البريطانية في طريقها إلى سنغافورة. سيكون ثمة قتال شوارع من بناء إلى آخر. لذا ذهبت إلى (مرتفعات كاميرون) حيث كان صديقي في (كلية رافلز) موريس بيكر يمتلك منزلاً في قرية (رينغليت) على بعد 3200 قدم، كان هو وبعض الأصدقاء يحصّلون معيشتهم عن طريق زراعة الخضروات والمحاصيل ذات الجذور. وقد دفعت تكاليف رحلتي كلها عن طريق بيع نصف دزينة من أدوات التجريف بربح وفير. فالمزارعون يحتاجون إلى مثل هذه الأدوات بشدة. وفي رحلة العودة اشتريت سلة من الخضروات الجميلة غير المتوفرة في سنغافورة، وأمضيت نهاراً ونصف نهار وأنا أحميها في القطار.

وعندما عدت ناقشت الأمر مع أمي ورأينا أنه من الأفضل الانتقال إلى « كاميرون هايلاندز) وكانت الخطوة الأولى أن بعنا الأرض المؤجرة لبيتنا في شارع نورفولك إلى مجموعة من اليابانيين الذين كانوا يعملون لدى (كيوسياي).

دفعوا لنا مبلغاً جيداً مقداره 60 ألف دولار لامتلاك هذه الدار وما حولها. ثم أخذت إجازة من مقر عملي (هودوبو) لمدة شهر.

فيما كنت أغادر مبنى كاثاي قبل يوم من مغادرتي العمل أخبرني عامل المصعد الذي كان صديقاً لي أن أتوخى الحذر، ذلك لأن مكتب (كيمبيتاي) أخذ ملفي. فشعرت بذعر شديد. ورحت أتساءل عمَّ سبب هذا؟، وهيأت نفسي للتحقيق. ومنذ تلك اللحظة لاحظت أنني مراقب كنت قلقاً مشغول البال ليل نهار.

وراحت تخطر ببالي كل الأسباب الممكنة، ولم أستطع أن أستنتج سوى أن أحدهم أخبر المخابرات اليابانية (كيمبيتاي) أنني أوالي الإنكليز وأشيع أخباراً عن أن الحرب تجري في غير صالح اليابانيين، وأنني لهذا السبب كنت أريد أن

أغادر. وكان هناك رجلان على الأقل في وقت واحد خارج المخزن في (شارع فكتوريا) حيث أقمنا بعد أن انتقلنا من شارع نورفولك. حصل والدي على استئجار هذا المنزل من هيئة النفط في شارع ألكساندرا.

ومن أجل أن أعرف ما إذا كان أحدهم يتبعني، طلبت من شقيقيّ دينيس وفريد أن يمكثا عند النوافذ العليا وأن يراقبا الرجلين الصينيين الواقفين عند زاوية شارع براس باساه وشارع فكتوريا وبقربهما دراجتهما. ثم استدرت نحو البناء. وعندما عدت فعلا ذلك أيضاً. وغاص قلبي. أعلمت والدتي بذلك، ورأيت أن من الأفضل ألا أغادر سنغافورة مطلقاً. إذ لمن المحتمل لو حاولت ذلك أن يجرني الكيمبيتاي (الشرطة السرية) إلى تحقيق كريه.

فأخذت أعمل عملاً مكشوفاً وعشت حياتي العادية أشتغل في السوق السوداء وأصنع الصمغ كي أعيش فمن المحتمل أن يدعونني وشأني.

تحملت لعبة القط والفأر هذه فترة ثمانية أسابيع ففي بعض الأحيان، وفي هدوء الصباح الباكر في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً كانت تمر سيارة في شارع فكتوريا وتقف قرب منعطف عند شارع (براس باساه). من الصعب أن أصف ما كنت أحس به من رعب من فكرة أنهم ربما جاؤوا من أجلي. لقد سمعت مثل ما سمع كثيرون عن أهوال التعذيب التي يمارسها (الكيمبيتاي) وأساليبه في التحقيق. كانت قيادتهم تقع في بناء YMCA في شارع ستامفورد، وهناك فروع في مناطق أخرى. ويقول القاطنون بالقرب من تلك المناطق: إنهم كانوا يسمعون الضحايا يصرخون من الآلام، وكانت صرخاتهم تجعل قلوبهم تنخلع خوفاً. وسرعان ما كانت تنتشر أخبار هذه المظالم المرعبة. كان أسلوباً متعمداً لإخافة السكان المحليين، فالجبناء يُسهل قيادتهم.

لم يكن لدي أية اتصالات مع أي خلية أو شبكة سرية لنشر أخبار الحلفاء. ولم يكن ثمة ما يدعوني إلى أن أصغي سراً إلى الإذاعة لأن عملي كان يقتضي بطبيعة الحال التعامل مع التقارير الإخبارية الغربية. عزمت على أن أقول لهم إذا

ما اعتقلت ما كنت أخاف منه: بعد تحرير بورما لا بد أن يغزو البريطانيون الملايو ثانية ويتابعون سيرهم إلى سنغافورة فيما يقاتل اليابانيون حتى آخر رجل. لذا قررت أن أغادر الجزيرة وأزرع نبات التابيوكا والبطاطا الحلوة والخضروات في مرتفعات كاميرون، التي لن تكون عرضة لأي غزو عسكري. وسأقدم الدليل على زيارتي لبيانغ وكاميرون، حيث لحقت بي أمي وأختي بعد شهرين، لأثبت لهم رأيي بأنها أفضل منطقة يمكن أن تنتقل إليها العائلة. ولكن ذات يوم، وبعد شهرين من المتابعة توقفت المراقبة. كانت تجربة مثيرة للأعصاب تفقد المرء رباطة جأشه.

بعد أن توقفت عن صنع الصمغ لضعف الطلب اشتغلت مع شاب من شانغهاي يدعى لويولينغ. كان متعهداً صغيراً في تجارة البناء، في الثلاثينيات من العمر. لم يكن له شركاء. كنت أستطيع التحدث باليابانية، بينما هو لم يكن كذلك، حصلنا على أعمال مختلفة من الشركات اليابانية ومن (بوتاي) المفارز التي كانت تحرس سنغافورة. ولتكثيف اتصالاتي مع القطاع المدني، عملت مع السيد كاجياما وهو مدني ياباني، في الثلاثين من عمره أيضاً. كان يعمل مع (كيومياي) وعندما شحّ العمل بالنسبة إليه في (كيومياي) بسبب أن السفن اليابانية كانت تغرق وبدأت البضائع تشح، قرر أن يعمل بمفرده كوسيط ما بين الشركات اليابانية الكبيرة، والمولين المحليين والعسكريين. كان أحدنا مكمّلاً للآخر. كنت أزوده بالنجارين والبنائين والمعماريين الذين كان يحتاجهم في أعمال البناء. وهكذا استطعنا معاً أن نحقق بعض النجاح.

واستمريت في العمل في السوق السوداء، أعمل سمساراً لأية سلعة تجارية. لم يكن الوضع سيئاً. فقد كانت المواد شحيحة وتزداد ندرة. ولم يكن فرط التضخم يعني انخفاضاً في الأسعار، ولكن المرء يحتاج إلى رأس مال كي يصبح أغنى. كنت قادراً على جمع بعض المال. أعلم أن في اللحظة التي يكون لدي نقود سائلة علي أن أستبدلها بشيء ذي قيمة أكثر ديمومة وإلا ذابت النقود بين يدي.

هذا الدافع المجنون حول نقودي الورقية إلى أثاث، فاشتريت لنفسي طاولة بلياردو وحسّنتها وأعدت طلاءها، وغيّرت كثيراً من الأشياء في شقتنا العالية في شارع فكتوريا. وفي شهر آذار أو نيسان عام 1945 انتقل صديق لوالدي من شقته في (مبنى الصين) وعرض علينا استخدامها، وهكذا بت أستطيع الاستفادة من شارع فكتوريا في مجال الأعمال المختلفة، وفي الاستجمام وإلى جانبه كان يوجد مبنى على الزاوية، مبني من القرميد الأحمر ومحل لبيع الحلويات ومخبز، حيث يلتقي السماسرة لتبادل المعلومات وعقد الصفقات، والتسلية، حيث كانت طاولة البلياردو هناك. كانت حياة وجودية، فيوماً بعد يوم كان يقترب موعد إعادة الغزو بما يحمل من مخاطر على السكان المحليين. وخلال تلك الفترة كان على المرء أن يعيش ويعمل كالمعتاد.

في شهر أيار (مايو) وصلت الأنباء عن هزيمة ألمانيا واستسلامها. والآن سوف يتوجه المجهود الحربي كله ضد اليابانيين. كل واحد منا كان يعرف أن المسألة باتت مسألة وقت لكي تهزم اليابان. ولما كنت أحرر حملة بورما الصحفية أثناء عملي في (هودوبو) فقد كنت أخشى من الثمن الباهظ الذي سيدفعه المدنيون، ولكن لم يكن ثمة من سبيل آخر. فمغادرتي قد تثير الشك والتحقيق.

وفجأة سقطت في السادس من آب (أغسطس) قنبلة غريبة وانفجرت فوق هيروشيما ـ لم يرد الخبر إلا في جريدة (سيونان شيمبون) في الحادي عشر من آب (أغسطس) على شكل تقرير «نيبون تحتج ضد الهجوم على هيروشيما بنوع جديد من القنابل يوم الاثنين الماضي» ـ ولكن أولئك الذين استمعوا إلى إذاعات الموجة القصيرة من محطة BBC نشروا خبر ضرب اليابان بسلاح إشعاعي جديد فتاك. شعرنا أن النهاية باتت وشيكة.

وفي الخامس عشر من آب (أغسطس) أذاع الامبراطور الياباني على رعيته نبأ الاستسلام. سمعنا ذلك على الفور لأن الشعب أصبح جريئاً فجأة وكان كثيرون يستمعون إذاعات الحلفاء، وخاصة BBC. لم ينشر الخبر في سيونان

شيمبون حتى العشرين من آب (أغسطس) عندما نشرت «القرار الامبراطوري» كاملاً. لقد انتهت الحرب بدون مزيد من القتال. لقد اجتنبنا محنة محمومة كانت قدراً محتوماً على رانفون وماندلاي، على مدى ثلاثة أسابيع بعد إعلان الامبراطور لم تكن ثمة إشارات على وصول الإنكليز وكان هذا وضعاً غير طبيعي. كان وضعاً مختلفاً عما حدث قبل ثلاث سنوات ونصف السنة، عندما استسلم البريطانيون قبل أن يسيطر اليابانيون تماماً على الموقف. القوات اليابانية، خلافاً للقوات البريطانية، لم تهزم وتفقد معنوياتها في المعركة. كانوا جزعين ومضطربين، ولكنهم ظلوا متماسكين ومحتفظين بالقدرة على إلحاق الأذى بنا. وعندما احتفى السكان المحليون بهزيمتهم ولم يستطيعوا أن يخفوا مشاعرهم كان الجنود اليابانيون يصفعون من يظهرون سرورهم.

كان الجيش الياباني يتوقع أن يُستدعى لتصفية الحساب على يد البريطانيين ويعاقب على أفعاله المشينة، وكان مستاء أيضاً من أن ينقض الناس على ضباطهم عندما يصلون. وقد سمعت طلقات نيران من مجموعة من الضباط اليابانيين لأن بعضهم لم يستطع أن يقبل بالاستسلام وفضّل الانتحار على طريقة الهاراكيري بالأسلوب الياباني أو بالمسدس. ولكن السكان المحليين كانوا سعداء. لم يقتل اليابانيون المدنيين على حد علمي كما لم تقع أحداث سيئة أو وحشية. تركوا الأهالي وشأنهم إلى أن تولى البريطانيون زمام الأمور، وظلوا محافظين على الانضباط العسكري كانت فترة السنوات الثلاثة ونصف من الاحتلال الياباني هي السنوات الأهم في حياتي. منحتني رؤية عميقة حية لسلوك البشر والمجتمعات الإنسانية، وبواعثهم ودوافعهم. وتقديري للحكومات، وفهمي للسلطة بوصفها عجلة للتغيير الثوري، ما كنت لأحصل عليهم لولا تلك التجربة. لقد رأيت نظاماً اجتماعياً كاملاً ينهار أمام جيش غاشم محتل. كان اليابانيون يطلبون الخضوع المطلق وقد حصلوا على ذلك من الجميع تقريباً. كانوا مكروهين من كل فرد ولكن كان كل فرد يعلم مدى قدرتهم على الإيذاء وبالتالي يخضع لهم.

وأولئك الذين تقاعسوا أو رفضوا التغيير والقبول بالسادة الجدد عانوا الكثير. عاشوا على هامش المجتمع الجديد، وتجمدت فرصهم وتضاءلت وفقدوا مراكزهم. أما أولئك الذين سارعوا إلى تقدير الوضع الجديد، وإلى انتهاز الفرص الجديدة، من خلال تقديم خدماتهم للسادة الجدد حققوا ثروات رغم كل ما كان يحيط بسنغافورة من بؤس.

حكمت الإدارة العسكرية اليابانية عبر نشر الخوف في قلوب الناس. لم تبد أي مظهر من مظاهر التحضر. وكانت العقوبات من القسوة بحيث اختفت الجريمة أو كادت. فوسط الحرمان بعد النصف الثاني من عام 1944. عندما كان الناس يعانون من الجوع، كان معدل انخفاض الجريمة مذهلاً. وكان الناس يستطيعون ترك أبواب بيوتهم مفتوحة في الليل. كل أسرة لها خفير، وكل عشرة بيوت يوجد مسؤول عنها. ويقوم هؤلاء الخفراء بدوريات من الغسق حتى شروق الشمس وهم يحملون العصي. لم يكن هناك حالات سرقة. فالعقوبات كانت شديدة جداً وتوصلت إلى قناعة بأن العقوبة الرادعة تكبح الجريمة، خلافاً لما يعتقده كثيرون. كان هذا خلافاً لخبرتي في سنغافورة قبل الحرب وأثناء الاحتلال البريطاني حيث تعلمت بعد الصدمة الأولى أن الحياة ينبغي أن تجري كالمعتاد. الناس يجب أن يأكلوا وهم يحتاجون إلى أدوية وأشياء أخرى مثل فراشي ومعجون الأسنان والملابس والأحذية والأقلام والحبر والورق، حتى شفرات الحلاقة أضحت غالية الثمن وصعبة المنال، فأصبحت الشفرات المستعملة تُشحذ ويعاد شحذها وذلك بتمريرها على حواف الألواح الزجاجية. التبغ صار أغلى ثمناً من العملة اليابانية. وتدنت مكانة بعض المهن. قل الطلب على المحامين المتمرنين على القانون الإنكليزي وذلك بسبب قلة التجارة. القانون العسكري كان يتعامل بسرعة مع الجرائم. وتعطلت المحاسبة بعد قلة الأعمال أما الأطباء وأطباء الأسنان فقد حافظوا على أهميتهم لأن الناس ما انفكوا يمرضون ويعانون من آلام الأسنان. لذلك ازدهرت أعمال الأطباء رغم النقص في الأدوية وشح العقاقير المخدرة.

في الأشهر العشرة الأولى من الاحتلال كان من المعتاد أن نرى مجموعات العمال من أسرى الحرب البريطانيين والأستراليين تأتي إلى المدينة مخفورة بجنود يابانيين. كانوا يقومون عادة بنقل البضائع من الأرصفة إلى الشاحنات. كانوا يتسللون إلى المقاهي طلباً للطعام، وكان الرجال والنساء يعطونهم الخبز والأطعمة المعلبة والنقود. وكان الصينيون يتعاطفون معهم كثيراً، نحلت أجسادهم وساءت أحوالهم منذ احتجازهم، أزياؤهم من قمصان وشورتات أصبحت رثة. ومنذ عام 1942 بدأ يقل ظهورهم في الشوارع وبعد سنة أصبح وجودهم نادراً. واعتقد الناس أنهم أرسلوا للعمل في أقطار أخرى مثل تايلاند، وإندونيسية، واليابان، وعندما عادوا إلى الظهور في سنغافورة في أواخر عام 1944 وبداية عام 1945، كانوا أشبه بالأشباح من شدة الخمول، هياكل عظمية وقد برزت منها العظام بحيث يمكن عدها. كانوا يعملون في السكك الحديدية في بورما، كانت عظام الورك ناتئة من أجسادهم. كانوا يثيرون الشفقة حيث ملأت أجسادهم القروح والجروح والندبات والجرب، ولاسيما على سيقانهم وأذرعهم. الطعام كان قليلاً ولكن ليس لدرجة عدم القدرة على إطعامهم بشكل مناسب. كانت معاناتهم تفوق معاناة أي سجناء حرب آخرين في العالم.

التحول من اللغة الإنكليزية إلى اللغة اليابانية باعتبارها لغة الإدارة والمسؤولين جعلت كبار السن يعانون كثيراً، إذ لم يكن من السهل تعلم اليابانية. والذين كانوا يتكلمون اليابانية مثل الصينيين التايوانيين بعضهم كان في سنغافورة قبل الاحتلال، ولكن الآخرين تبعوا الجيش الياباني، بعض الشباب المحليين تعلموا شيئاً من اليابانية كي يعملوا، معظم الناس كانوا محترمين، ولم يرغبوا بالتعاون مع الاحتلال، أرادوا أن يقدموا للاحتلال أقل ما يمكن. حفنة قليلة تجرأت على معارضتهم وقد جرى ذلك سراً ولكن لم يكن هناك من يرضى بالتعاون مع العدو. ولكن كان هناك آخرون انتهازيون أيضاً يقدمون الخدمات لليابانيين كما يقدمون النساء والشراب والمعلومات والطعام الجيد كي يحصلوا على المال الوفير. وبعض المحظوظين منهم صاروا سماسرة يوفرون لليابانيين ما يحتاجون من مواد

ولاسيما مواد البناء. أما الأكثر حظاً، كالأخوة شو، فهم من يحصلون على رخصة لإدارة صالات القمار التي كان يرتادها الكثيرون طمعاً في الربح وتزجية أوقات الفراغ. وبعد جمع المال كان الهم الأول هو كيفية المحافظة عليه عن طريق تحويله إلى عملات أخرى، أو شراء أشياء تحافظ على قيمتها. وكان هؤلاء يحرصون على اقتناء أشياء تحافظ على قيمتها عند عودة الإنكليز. وأن تكون صغيرة الحجم غالية الثمن يسهل إخفاؤها كالمجوهرات. أما الأثرياء الأكثر جرأة فكانوا يشترون العقارات. بيد أن أسعارها لم تكن ترتفع كارتفاع أسعار العملات الصعبة. وفي المراحل الأخيرة من الاحتلال بات من الممكن بيع صندوق من زجاجات الويسكي (12زجاجة) بما يكفي من العملة اليابانية لشراء دكان في شارع فكتوريا. وصار السماسرة الذين يرتبون مثل هذه الصفقات من الأثرياء بعد الحرب.

تعلمت الكثير من سنوات الاحتلال الياباني التي دامت ثلاث سنوات ونصف أكثر مما يمكن لأية جامعة أن تعلمني. لم أكن قد قرأت بعد قول ماو المأثور «تأتي القوة من برميل البارود»، ولكنني عرفت الوحشية اليابانية، والمدافع اليابانية، والحراب والسيوف اليابانية، وأعمال الرعب والتعذيب التي قاموا بها كانت تجعل الناس يغيرون سلوكهم وحتى ولاءاتهم. لم يكن اليابانيون يأمرون الناس ويطلبون منهم الطاعة فحسب، بل كانوا يكرهونهم على التكيف وفقاً للقواعد اليابانية على مدى طويل بحيث ينشأ أولادهم وهم متكيفون مع النظام الجديد، ولغته وعاداته، وقيمه من أجل أن يكونوا مفيدين وقادرين على العيش.

المرحلة الثالثة والأخيرة التي سيحققونها إذا أتيح لهم الوقت، أن يجعلونا نقبل بهم كسادة جدد لنا قبولاً طبيعياً، ولا مكان للأخلاق والعدل.

لقد كسبوا الحرب وباتوا في موقع الذروة والقيادة. كان علينا أن نمتدح آلهتهم، ونحترم ثقافتهم ونقتدي بسلوكهم. لكن هذا لا يتحقق دوماً. فقد واجه اليابانيون في كوريا مقاومة منذ اللحظة التي حاولوا فيها أن يحكموا تلك البلاد.

حاولوا أن يقمعوا مواهب وعادات الشعب وثقافته العريقة، أن يقمعوا شعباً لديه إحساس شديد بالاعتزاز بتاريخه والتصميم على مواجهة الطغاة البرابرة. قتلوا كثيراً من الكوريين ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على روحهم المعنوية.

ولكن ذلك كان حالة استثنائية. ففي تايوان - التي حكمها الصينيون، والبرتغاليون، والهولانديون، قبل مجيء اليابانيين - لم تكن ثمة كراهية، ولو أن اليابانيين بقوا في سنغافورة والملايو 50 سنة لكانوا كسبوا الكثير من المؤيدين لهم كما فعلوا في تايوان بنجاح. كانت الملايو صغيرة جداً تقطنها شعوب متنوعة ومجتمعها هش وضعيف المقاومة. وكان هناك بعض الملاويين الذين انضموا إلى مقاتلي حرب العصابات ضد اليابانيين في الأدغال الملاوية بإشراف مدربين بريطانيين من القوة 136 وكان كثير منهم يأملون أن يكون اليابانيون حماتهم الجدد، تماماً كما كانوا يتمنون أن يصبح البريطانيون حماتهم بعد أن هزموا اليابانيين. الشعب الوحيد الذي كان لديه الشجاعة والقناعة لمجابهة الغزاة هم الصينيون الذين انضموا إلى الحزب الشيوعي المالاوي. كما انضموا بأعداد صغيرة إلى المقاومة التي يقودها الكومينتانغ. كان المحرك الذي يثير مشاعر كلا الفرقين هو الأممية الصينية وليس الوطنية الملاوية. وكانوا مناوئين للبريطانيين في زمن السلم كما كانوا مناوئين لليابانيين زمن الحرب.

في الفترة الفاصلة المضطربة بين استسلام اليابانيين في الخامس عشر من آب (أغسطس) 1945 وتأسيس إشراف بريطاني فعال على الجزيرة في أواخر شهر أيلول (سبتمبر)، أخذت المجموعات المعادية لليابان السلطة في أيديها. وقامت هذه المجموعة بأعمال الإعدام بدون محاكمة والقتل والتعذيب والانتقام والضرب، وقد طال ذلك من المخبرين والجلادين وكل من شارك اليابانيين في جرائمهم. أو اشتبه بهم. وأتذكر أصوات حفيف أقدام الأشخاص الذين كانوا يُجَرْجَرُونَ في وضح النهار. حول بيتنا في شارع فكتوريا و (بناء الصين). كنت

أسمع أصوات الضربات والصرخات وهم يُقتلون ويُذبحون. ولكن في الأيام الأخيرة نجح كثير من المتعاونين (مع اليابانيين) في الاختفاء أو الهروب من البلاد إلى الملايو أو جزر رياو في الجنوب.

لم يجلب التحرير ما كان يتمناه كل فرد: معاقبة الأشرار ومكافأة الأخيار. لا يمكن أن يكون هناك عدل في تصفية الحسابات. العدل والإنصاف يتطلبان وثائق وتحقيقات سليمة. ولم يكن من الممكن جمع الوثائق الكافية لمعاقبة كل مذنب. كان هناك كثير من المذنبين من يابانيين ومحليين. لم تطبق العدالة إلا على القلة واستطاع كثيرون أن ينجوا من العقاب.

كانت هناك محاكمات، ولكن مجرمي الحرب اليابانيين الكبار لم يعاقبوا. فالعقيد تسوجي، الرجل الذي أمر بمذبحة (سوك تشينغ) قد اختفى، والجنرال ياماشيتا (نمر الملايو) الذي صادق، بوصفه قائداً مسؤولاً، على المذبحة المذكورة، قد نُقل أولاً إلى منشوريا ثم إلى الفيلبين، حيث استسلم في أيلول (سبتمبر) 1945 إلى قوات الجنرال ماك آرثر. وقد حوكم وشُنق في مانيلا بسبب نهبه للمدينة، وليس بسبب المصادقة على قتل ما بين 50 إلى مئة ألف إنسان بريء في سنغافورة.

حوكم قرابة 260 يابانياً على جرائم ارتكبوها في سنغافورة، ولكن لم يُحكم بالإعدام إلا على مئة شخص على الرغم من أن مئات الأشخاص في سنغافورة، ومن بينهم أصدقاء لي، قد اعتقلوا وعُذبوا في مراكز (الكيمبيتاي) في سنغافورة. وكان أحدهم ليم كيم سان، الذي أصبح فيما بعد وزيراً في الفترة ما بين 1963 ـ 1968. وقد حدثني عن معاناته الكئيبة عام 1944 فقال:

«اعتقلت مرتين في أوكسلي رايز» الأولى في كانون الثاني 1944 لمدة أسبوعين، والثانية في شباط عام 1944 لفترة تزيد على شهر. أخبر عني فتى صيني كان يأتي إلى دكاني في «شارع الجسر الشمالي» وادعى أنني أعطيته مالاً من أجل الشيوعيين. وعندما ناقشتهم بأن لا صحة لذلك لأنني رأسمالي ولا يمكن أن أكون شيوعياً، وثّقوني بالحبال، وتعرضت للضرب والرفس.

لم أستعد وعيي إلا بعد أن صبوا الماء على وجهي. فجدت نفسي سجيناً في غرفة مساحتها ما بين الخمسة عشر أو العشر أقدام، يشاركني فيها حوالي ثلاثين شخصاً من ذكور وإناث

كان يوجد مرحاض في إحدى زوايا الغرفة، وهو من النوع الخفيض مزود بحوض ماء بمكان مرتفع فوق رؤوسنا. وتدفق الماء المتكرر يجعله «نظيفاً» يعاد جمع الماء المتدفق في حوض المرحاض. هذا الماء هو ما كنا نشرب منه ونستحم به. وإذا قدر لأحدنا أن يمرض لا يعرف إلى أين سيذهبون به إلا الله، أصبت بالغثيان من مشهد امرأة تنزف دم الحيض. كانوا يطعموننا الأرز ممزوجاً بخضر لا تصلح للطعام. لم أكن أستطيع ابتلاعها وكنت أتقيّأ في كل مرة أحاول أن أتناولها. ذكرني ذلك كيف كنا نُطعم البط.

كنا نجلس جميعاً في زرائبنا ولم يكن من المسموح لنا تغيير أماكننا بدون إذن من الحرس، وهم صبية محليون تطوعوا ودُرِّبوا على القسوة. في أحد الأيام أُحضر هندي عجوز. لم يكن يستطيع الجلوس. بل يمشي وهو يجر رجله المصابة. كان يتألم مرَّ الألم وهو يجر ساقه المعطوبة.

وكان بين المعتقلين شاب صغير في ما يقارب السابعة عشرة من عمره. جيء به بعد عقوبة. وذات ليلة علقه الحرس الياباني عارياً على جدار مرتفع. ويداه مربوطتان خلفه.ثم تركوه على هذه الحالة طوال الليل بدون ماء أو طعام. تعرض لتعذيب شديد وراح يصرخ ويتألم، وهم يضربونه على ظهره. استمر التعذيب بضع ساعات، وبدأت صيحاته تتلاشى شيئاً فشيئاً إلى أن توقفت. توفي، وظل معلقاً بضع ساعات أمامنا كتحذير لنا.

في كل صباح كنا نرتجف هلعاً عندما نسمع صوت خطوات ثقيلة تقترب منا. كان ذلك يعني اقتراب الحرس منا من أجل التحقيق والتعذيب.

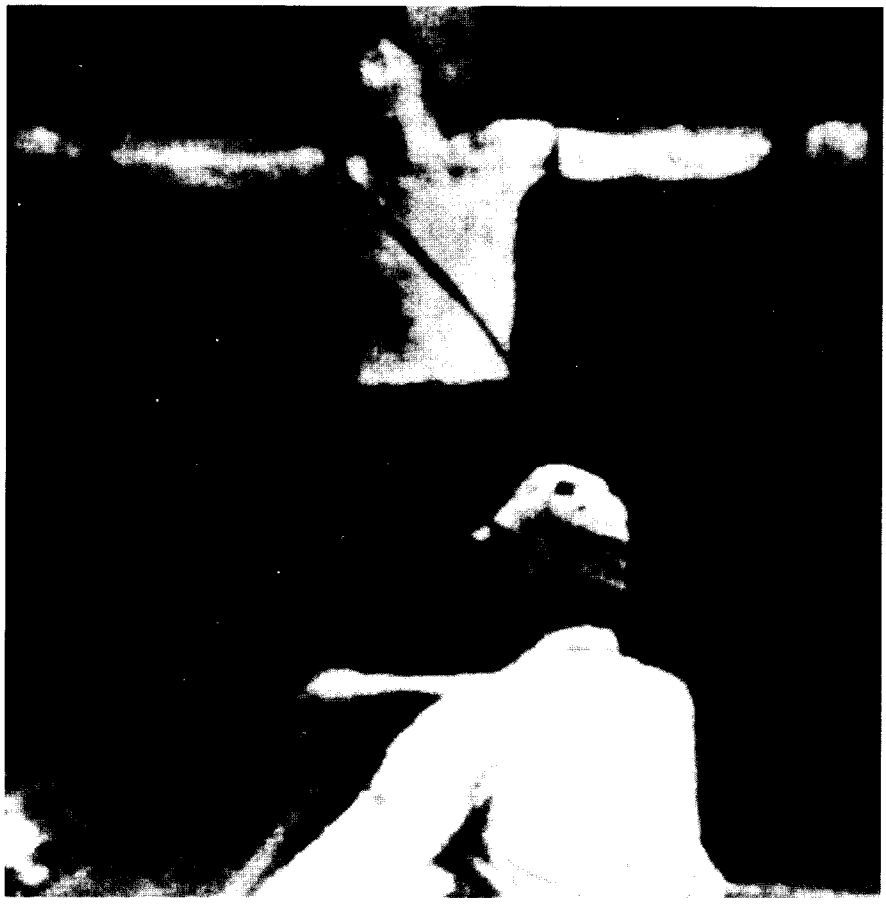

تعذيب غريسوم على يد جنود يابانيين أثناء الاحتلال.

«تحررت على يد ضابط اتصال تايواني رفيع. رأيت الطبيعة الحقيقية لليابانيين خارج وداخل السجن. المدنيّة والانحناءات لم يكونوا إلا غطاء رقيقاً يخفي الوحش. لقد أنقذ انتصار الحلفاء آسيا».

كانت الوحشية اليابانية تتجلى في العقيد كولين سليمان سليمان المدعي العام في محكمة العشرة التي افتتحت في سنغافورة في الثامن عشر من آذار عام 1946:

«من أجل إعطاء وصف دقيق للأعمال الشنيعة لهؤلاء الرجال سيكون من الضروري أن أصف أفعالاً تعكس أعماق والانحطاط والانحلال الإنساني. مفتاح هذه القضية يمكن أن يُلخص بكلمتين ـ الخوف الذي لا يمكن وصفه».

رغم كل هذه الوحشية والقهر، وعلى مدى خمسين عاماً منذ انتهاء الحرب آثرت حكومات الحزب الديمقراطي الليبرالي الياباني، وغالبية زعماء الأحزاب السياسية اليابانية، ومعظم الأكاديميين، وجميع وسائل الإعلام تقريباً ألا تكشف أو تتحدث عن هذه الأفعال الشنيعة. كانوا يأملون، خلافاً للألمان، أن هذه الأفعال سوف تنسى مع تعاقب الأجيال، وأن المحاسبة عليها سوف تندثر. ولأنهم رفضوا أن يقروا بآثامهم تجاه جيرانهم. كان هؤلاء يخشون أن تتكرر تلك المآسي. وفي عام 1992 فقط، عندما استلم السلطة حزب آخر غير الحزب الديمقراطي الليبرالي، قدم رئيس الوزراء موريهيرو هوسوكاو اعتذاراً عما ارتكبه اليابان من أعمال فظيعة في سنوات الحرب.

4. بعد التحرير

في يوم الأربعاء الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) عام 1945، عند قرابة الساعة العاشرة والنصف صباحاً، مشيت إلى (سيتي هول) حيث سيجري مراسم الاستسلام وانتظرت عند بادانغ عبر الطريق. فالمشهد يستحق الانتظار. رأيت مجموعة من سبعة من كبار الضباط اليابانيين يصلون إلى (هاي ستريت) مصحوبين بالشرطة العسكرية البريطانية بقبعاتهم الحمراء وربطات أذرعتهم. وكان على رأسهم الجنرال ايتاجاكي، رئيس أركان القوات في الملايو وسنغافورة. كانوا يمشون بطريقة صحيحة خلافاً لكثير من الضباط اليابانيين.

وكانت الجماهير تصرخ في وجوههم وتُصفر وتسخر منهم، ولكن اليابانيين كانوا منضبطين رافعي الرؤوس ينظرون أمامهم. لقد جاؤوا لتوقيع صك الاستسلام الرسمي تنفيذاً لأوامر امبراطورهم. وكان يُشاهد في وقت لاحق كثير من الضباط في أماكن مختلفة يسلمون الساموراي الطويلة في غمدها. لقد اعترفوا بالهزيمة ونزعت منهم أسلحتهم وباتوا أسرى حرب. ولكن الجنرالات السبعة الذين كانوا يمشون الآن في (ستي هول) كانوا يمثلون جيشاً لم يهزم في معركة. كان عليهم أن يقاتلوا حتى النهاية، وتركوا لدى شعب سنغافورة الذي كان يكرههم انطباعاً لا يرقى إليه الشك بأنهم كانوا يفضلون أن تبتلعهم ألسنة اللهب مع كل الآخرين على أن يستسلموا.

وبعد خمس وأربعين دقيقة ظهر اللورد لويس مونتباتن، القائد البريطاني المسؤول في قيادة جنوب شرق آسيا، مرتدياً زي سلاح البحرية الأبيض. وكان يصحبه عدد من جنرالاته وكبار ضباطه، وسبعة أو ثمانية ضباط يمثلون القوات الحليفة، من هنود وصينيين وهولانديين وغيرهم. ورفع قبعته البحرية عالياً وحيا بها القوات ثلاث مرات والتي انتظمت كالعقد أمام الأدراج. كان يحب البزات الرسمية والاستعراضات العسكرية والمراسم.

كانت لحظات ابتهاج عظيم. فقد زال كابوس الاحتلال الياباني والناس وأخذت تعتقد أن الأيام السعيدة باتت وشيكة العودة. وكان ثمة أمارات تدل على ذلك. فالقوات كانت سخية في توزيع السجائر ـ رزم من (باكيتات) دخان بليزر، التي لم تكن موجودة منذ ثلاث سنوات. وكميات كبيرة من الجعة وويسكي جوني ووكر والجن من ماركة جوردون باتت متوفرة في السوق، واعتقدنا أنه سرعان ما سوف يتوفر الأرز والفواكه والخضار واللحوم والأطعمة المعلبة. فخلال الأسابيع القليلة الأولى كان ثمة شعور بالابتهاج. إذ كانوا الناس سعداء بعودة الإنكليز وقاموا بالترحيب بهم.

وفي بداية عام 1946، تبين للناس أنه لن تكون ثمة عودة إلى تلك الأيام الآمنة المستقرة والحياة السهلة في سنغافورة. فالمدينة كانت مليئة بالقوات العسكرية بملابسها العسكرية. كانوا يملأون الحانات والمقاهي وأماكن اللهو. والأعمال التجارية الناشطة قبل الحرب لا يمكن أن تعود على الفور، ذلك أن المستخدمين الإنكليز قد توفوا أو استعيدوا من الاعتقال. وكان وصول السفن قليلاً والبضائع البريطانية نفسها شحيحة. كانت تبدو مُخزّنة لعدة سنوات قبل الحرب قبل أن يُستأنف تصديرها. حتى المواطنون المحليون الذين كانوا يعملون في مكاتب الحكومة ما كان بوسعهم أن يعودوا إلى أعمالهم القديمة، وظل كثير منهم بلا عمل. كان عالماً مضطرباً حيث انتعش البائعون المتجولون في سنغافورة كما هو الحال في بريطانيا وكان يطلق عليهم لقب (المتبطلين) وبات كثير من البضائع التي كانت تباع سابقاً في السوق السوداء تباع الآن في السوق الحرة.

كان هناك أعداد كبيرة من سيارات الجيب والدراجات العسكرية في الشوارع، ولكن لم يكن ثمة سيارات أو حافلات جديدة. فقد خُربت حافلات (الترولي باص) وامتلأت الطرق بالحفر، أما الهواتف فكانت قديمة وخطوطها غير واضحة الصوت بسبب عدم تجديدها، ولم تكن الكهرباء متوفرة دوماً بسبب الانقطاعات. كان لا بد من مرور بعض الوقت حتى تعود الأمور إلى انضباطها.

كنا ننتظر بفارغ الصبر (الأيام الخوالي الجيدة) أثناء سنوات المعاناة آمالنا التي كانت مرتبطة بالحنين إلى الماضي، كانت آمالاً كبيرة، ولكن خيبة الأمل كانت مقدرة علينا. فالبنية التحتية منهارة، والأملاك الخاصة ضائعة أو مُخربة. مات أناس كثيرون فيما أصاب الآخرين المرض أو الهرم. لا بد للحياة أن تأخذ مجراها ولكنها لن تكون كالأيام التي مضت.

ومع هذا فإن الإدارة العسكرية البريطانية، مهما كان تقصيرها، كانت بمثابة راحة كبرى لنا بعد القمع والرعب اللذين قاسينا منهما على يد أسلافهم اليابانيين، وكان الضباط والمدنيون البريطانيون يعرفون أن السكان المحليين يرحبون بعودتهم ولمسوا الحرارة التي أظهرناها نحوهم وفعلوا ما بوسعهم من أجلنا. وكان كثير من الجنود والضباط يشاركوننا في مخصصاتهم من الدخان والخمر. وكان كثيرون في سنغافورة يفهمون اللغة الإنكليزية والثقافة الإنكليزية ونظام الحكم في بريطانيا. حتى غير المتعلمين كانوا متآلفين مع مكونات النظام الاستعماري البريطاني لأنهم كانوا على اتصال بها.

كان من المتوقع أن يكون حي (ستريت تشاينيز) تحديداً، سعيداً بعودة مجتمعه الذي اشتهر به إليه. ومع أنه استعاد كثيراً من تقاليده الصينية فقد امتنع كثيرون عن التحدث بلهجاتهم الخاصة وتحولوا إلى اللغة الملاوية. ومن المعروف أن المهجرين الأوائل لم يُحضروا زوجاتهم معهم وتزوجوا من نساء محليات. وكان هؤلاء موالين للبريطانيين ؛ في معظمهم، وأرسلوا أولادهم إلى مدارس إنكليزية آملين في النهاية أن يصبحوا اختصاصيين أو موظفي حكومة في مستعمرة تديرها بريطانيا ولغتها الرسمية الإنكليزية. انضم الناس الأكثر ولاء إلى جمعية ستريتس البريطانية الصينية وكانوا يعرفون شعبياً باسم (صينيو الملك) والأعضاء البارزون في تلك الجمعية أصبحوا فرساناً، بيد أن هؤلاء لم يشكلوا إلا 10% من المجتمع. أما البقية كانوا صينيين يتكلمون اللغة الصينية وقد جاؤوا إلى سنغافورة في وقت متأخر. وهم يتكلمون بلهجاتهم الخاصة، ولا سيما لهجة (الهوكين)

و(تيوشيو) و(الكانتونية) و(الهاكا) و(الهينانيس) والتحق أولادهم بمدارس صينية وتعلموا لغة الماندرين، وكانت علاقاتهم مع السلطة البريطانية محدودة. كانوا يعيشون منفصلين، ولم تختلف حياتهم بعد الحرب عما كانت عليه قبلها.

كان ولاؤهم للصين وليس لبريطانيا. وكانوا هم من اقتحموا أدغال الملايو لمقاتلة اليابانيين، في حرب عصابات ضمن الجيش الملاوي المعادي لليابان (MPAJA)، الذراع العسكري للحزب الشيوعي الملاوي. وكانوا يتطلعون إلى يوم لا يطردون فيه اليابانيون فقط، بل والبريطانيين أيضاً. وقد أشاعوا الفوضى عندما استسلم اليابانيون فجأة قبل وصول الإنكليز.

وفي الملايو استولوا على بعض المدن الصغيرة، ونصبوا الأقواس ترحيباً برجال العصابات بوصفهم المنتصرين الحقيقيين في المعركة ضد اليابانيين، وتصرفوا كما لو كانوا سلطة محلية فعلية. ومن حسن الحظ أنهم لم يفعلوا الشيء ذاته في سنغافورة، ولكنهم سببوا بعض الاضطرابات. فقد كانوا يظهرون في الشوارع بملابس موحدة ذات لون خاكي مع قبعات تحاكي لباس الجيش الصيني الشيوعي الثامن. وفي ذروة الانتصار كان لهم اليد الطولى، فقد صادروا بعض الأراضي بالقوة وأقاموا محاكم شعبية لإصدار أحكام فورية على المتعاونين مع اليابانيين من جميع الأعراق. وفي إحدى المرات جمع 20 من رجال الشرطة السرية الصينيين ووضعوا في أقفاص كبيرة لمحاكمتهم.

وكانوا يبتزون رجال الأعمال بسبب تعاونهم السابق مع العدو. وأكره أناس بارزون كثيرون على تقديم تبرعات سخية (للجيش الملاوي المعادي لليابان) (MPAJA) بسبب أفعالهم السابقة. وانتشر بعض قطاعي الطرق الشبان الذين يجمعون المال للجيش المذكور من أولئك الذين تعاونوا في السابق مع اليابانيين. ولم يكن بوسع القوات البريطانية أن تعيد فرض النظام والقانون في وجه عدوانية وانتهازية رجال العصابات الذين ادعوا أنهم لعبوا دوراً في المقاومة. ومن حسن الحظ فقد ظل هؤلاء في الملايو ولم يقتربوا من سنغافورة. لأنه لم يكن

لديهم وسائط نقل، فظلوا في المالايو، وكانوا أكثر فاعلية هناك لأنهم متآلفون مع تلك المنطقة، قدمت الإدارة العسكرية البريطانية مبلغ /350/ دولاراً لكل فرد من أفراد الجناح العسكري للحزب الشيوعي المالاوي ممن يقومون بتسليم أسلحتهم.

وخلال الفترة من كانون الأول (ديسمبر) 1945 إلى كانون الثاني (يناير) 1946 سلّم 6500 شخص بالفعل سلاحهم، بمن فيهم بضع مئات من سنغافورة. وفي السادس من كانون الثاني (يناير) أقام البريطانيون احتفالاً خارج (سيتي هول) حيث أجرت فرقة صغيرة من الجيش المذكور بملابسها الرسمية استعراضاً أمام اللورد لويس مونتباتن الذي قلد 16 من قادتهم أوسمة. وتلقى تشين بينغ، الذي وصفته الصحف بأنه قائد المغاوير الشيوعي، وسام نجمة بورما (1939 ـ 1945) ونجمة الحرب بعد أن قدم التحية. وجرى الاعتراف رسمياً بمساهمة (الجيش المالاوي المعادي لليابان ـ MPAJA) في هزيمة اليابانيين وهذا ما أعطاه امتيازاً استغله أفراده إلى أقصى الحدود لتوسيع نفوذهم.

وفي تلك الأثناء كانوا يخزنون كثيراً من الأسلحة سراً لاستخدامها في المستقبل. كان الشيوعيون قادرين على تطويع بعض الأفراد من ذوي الثقافة الإنكليزية في الجبهة الموحدة التي كانوا يشكلونها. واستطاعت مجموعة ممن يدعون بالمثقفين ـ من محامين وأساتذة وخريجي وطلاب كلية رافلز العائدين من كمبريدج ـ تشكيل ما دعي (الاتحاد الديمقراطي المالاوي) الذي كان مقر قيادته في شقة متواضعة فوق قاعة الرقص في ملهى الحرية في شارع (الجسر الشمالي)، واختاروا رئيساً لهم فيليب هواليم سينيور، وهو محامي وصديق لأسرتي. كانوا يحتاجونه كغطاء للتلاعب بالمنظمة، وكنت من زائري المنظمة بحكم معرفتي به. كان هدف المنظمة يبدو وكأنه شرعيٌ تماماً. وقد أعلن البريطانيون تشكيل (اتحاد المالايو) الذي ضمّ تسع ولايات مالاوية، ومستعمرات ستريتس في بينانغ ومالاقا، ولكنه لم يشمل سنغافورة. وهذا يعني أن سنغافورة ستظل مستعمرة بريطانية. ولم يكن هذا مقبولاً. فقد طالب (الاتحاد الديمقراطي المالاوي) باستقلال كل من المالايو وسنغافورة كوحدة واحدة.

ساهم فيليب هواليم في وضع الدستور المقترح، ومع أنني اطلعت على مسودته إلا أنني لم يكن لي شأن به. أما الشيوعيون فقد اعتبروا من جانبهم أن كل حديث عن تغيير الدستور لا علاقة لهم به. كانوا يريدون الهيمنة على السلطة بالكامل. ولم يكن «الاتحاد الديمقراطي المالاوي» إلا واجهة لحشد ذوي الثقافة الإنكليزية كي يساعدوهم على تحقيقه. ولكن عندما لجأوا إلى الكفاح المسلح ضد البريطانيين عام 1948 ليحصلوا على السلطة انهار (الاتحاد الديمقراطي المالاوي).

قبل أن يحدث ذلك كان ثمة عمل كثير. فقد شرع الشيوعيون بعد خروجهم من الأدغال مباشرة، في استعراض عضلاتهم مستخدمين النقابات. وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول (اكتوبر) 1945 حملوا سبعة آلاف من عمال أحواض السفن في تانجونغ باجار وهيئة ميناء سنغافورة على الإضراب. وبعد بضعة أيام عقدوا اجتماعاً جماهيرياً ضم 20 ألف عامل حيث أعلنوا عن تأسيس (اتحاد العمال العام). وقد ضم (الاتحاد) على الطريقة الشيوعية التقليدية عمالاً من المهن ومجموعات العمل كافة. وعندما أعلنوا عن إضراب عامٍ في التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) 1946 في استعراض للقوة، بعد أن كانت الإدارة العسكرية البريطانية قد اعتقلت بعض الشيوعيين، أعلن ما يقارب 170 ألف عامل من المستشفيات وأحواض السفن، والقاعدة البحرية ومصانع المطاط، والنقل العام ودور السينما والملاهي وغيرها من المؤسسات، التوقف عن العمل. كما أغلقت جميع المحلات. واعتبر هذا ضرباً من العصيان المدني أو (هارتال) وهي كلمة تعني العصيان المدني بالهندية.

لم يكن هذا الإضراب عفوياً أو تلقائياً، بل كان مفروضاً بالقوة والخوف. فالمحلات أغلقت خشية التعرض للأذى أو النهب. وأكره معظم العاملين حتى في الأشغال الحرة على التوقف عن العمل. لقد تجمدت الحياة في المدينة. ولكن الشيوعيين كانوا يشكون في قدرتهم على الاستمرار طويلاً في الاضراب، وهذا ما دعاهم إلى التخلي عن (العصيان) في اليوم التالي.

استكملت معرفتي عن الظلم والحماقات الإنسانية من مشاهداتي لما كان يحدث في أعقاب الحرب مباشرة. فإذا كانت السنوات الثلاث ونصف من الاحتلال الياباني قد علمتني الكثير من حقائق الحياة، فإن السنة الأولى في سنغافورة المحررة كانت بمثابة دورة ما بعد التخرج. كانت مختلفة تماماً عن ذكرياتي عن ثلاثينيات الاحتلال. فالموظفون البريطانيون الذين نجوا من الموت كانوا يعادون إلى الوطن من أجل المعالجة والاستشفاء، أما الضباط المؤقتون في الإدارة العسكرية البريطانية فكانوا يشرفون على عمل الدوائر الارتجالية.

والحق أنهم تلقوا تعزيزاً من بعض أجيال ما قبل الحرب ممن كان عليهم أن يغادروا عندما جاء اليابانيون، أو هربوا في الوقت المناسب. ولكن لم يمسهم أحد مع التغييرات التي حصلت. المسؤولون الآن ـ المقدمون والعقداء والعمداء ـ أنهم سيبقون في السلطة حتى يُسرحوا من الخدمة ـ ومن عجب أن مطالبهم كانت مشابهة لمطالب الضباط اليابانيين ـ شيء ما صغير وقيّم ويمكن إخفاؤه لأخذه إلى الوطن عندما ينتهي الوضع. بالمقابل ضمنوا إجازات وإمدادات من المواد النادرة للسكان المحليين، وبالتالي تحقيق فرص لجمع المال. ولكنهم لم يكونوا متميزين وظالمين كاليابانيين.

مع خروج اليابانيين شغر كثير من المنازل، ورحت أبحث أنا وأمي عن شقة لائقة ننتقل إليها، إذ كان علينا أن نغادر (مبنى الصين) ولم يعد شارع فكتوريا مناسباً. وفي شارع أوكسلي، وهو منطقة للطبقة المتوسطة حيث أخلى الأوروبيون شققهم عام 1942، وحل محلهم مدنيون يابانيون، عثرنا على منزلين مناسبين ـ رقم 38 و40 ـ بناهما تاجر يهودي أطلق عليهما اسم كاستور بولوكس. كانا فارغين باستثناء بعض الأثاث الثقيل، وقررنا أن نعرض استئجار المنزل رقم 38 كان منزلاً كبيراً رحباً يتألف من خمس غرف نوم، وثلاث غرف أخرى في الخلف تستخدم عادة كجناح للخدم. قابلت جورج غو، وهو صديق صيني مولود في

جافا، كان مسؤولاً عن مكتب (أملاك العدو) وقد رحب بتأجيرنا المنزل بسعر ما قبل الحرب، بمبلغ يقارب 80 دولاراً أمريكياً في الشهر، وهو ميلغ كبير جداً ولكن قررنا أن نأخذ البيت.

عاد أبي إلى العمل في شركة (شل) ليكون مسؤولاً هذه المرة عن مستودعها في بازير بانجنغ في سنغافورة. في تلك الأثناء كان عليّ أن أقرر ما ينبغي عمله. كانت التجارة في السوق المفتوح ما تزال مربحة، ولكن حجم البضائع اختلف وهذا ما كان يحمل معنى المخاطرة. لم أكن أستطيع التنبؤ بالمواد التي يفتقر إليها والتي يمكن أن تتوفر فجأة إذا ما استوردتها. واخترت كبديل أن أتصل ببعض الضباط البريطانيين المسؤولين عن الأشغال العامة لأرى ما إذا كانوا يرغبون ببعض أعمال البناء. وبعد محاولتين أو ثلاث نجحت في عقد صفقة مع رائد هندي كان يشرف على مستودعات ومخازن الجيش الياباني في (شارع ألكساندر). تحدثت إلى رائد إنكليزي طويل القامة كان يحتاج إلى عمال لإخلاء البضائع اليابانية من المستودعات ونقلها إلى مستودعات الجيش البريطاني. وقمت بتزويده مع صديق لي من شانغهاي يدعى ليولونغ بما يقارب 100 و 150عاملاً مقابل دولارين في اليوم، وعمل معي أخي الأصغر دينيس كمحاسب ومسؤول عن المدفوعات. كان الجيش يُدفع لنا في نهاية النهار، ونحن بدورنا ندفع للعمال، وكان ثمة أعمال بناء أخرى منفصلة كان يُدفع لنا مقابلها على حدة. بدأ العمل في تشرين الأول 1945واستمر حتى أيار 1946 في شهر آذار (مارس) 1946. تعرض دينيس لحادث سير، ذات مساء عندما كان مستقلاً دراجته وهو في طريقه إلى البيت ومعه أجور العمال. صدمته شاحنة وقذفته عدة ياردات على قارعة الطريق. أوشك ذراعه الأيسر أن ينخلع من كتفه، وجُرح وجهه. ذهبت لرؤيته في المشفى فكان أول ما سألني: هل ضاعت النقود؟ شعرت بالحزن والألم العميق، إنها بضع مئات من الدولارات. لكنه جاد في عمله، واسيته بقدرما استطعت. أجريت له عملية جراحية ناجحة لكنه ظل يعاني من الألم والعجز أشهراً طويلة.

وفيما كنت منهمكاً في هذه الأعمال كنت منشغلاً أيضاً بما ينبغي علي فعله كي أكمل تعليمي، وما ينبغي أن أفعل تجاه علاقتي المتنامية مع تشو. لم أكن متفائلاً تجاه الحصول على شهادتي في (كلية رافليز) إلى سنة أو سنة ونصف حتى أتخرج. أي أنني سأفقد ما مجموعه ثلاث سنوات. ناقشت الأمر مع والدتي. وارتأينا أن العائلة تستطيع أن تسدد نفقات دراستي للحقوق في بريطانيا وفي دينيس، مما وفرته من نقود، ومن مجوهرات أمي، ومما كنت أكسبه من السوق السوداء، وعقد العمل الذي أشرت إليه. وخططت للمغادرة إلى انكلترة بأسرع وقت ممكن بدلاً من العودة إلى (كلية رافيلز) كي أحاول الحصول على منحة الملكة.

فيما بين شهري تشرين الأول وتشرين الثاني من عام 1945 قدّمت (تشو) إلى مسؤول المكتبة في (مكتبة رافيلز) (المكتبة الوطنية الآن) وحصلت لها على عمل مؤقت هناك. وكانت أسرتها قد انتقلت إلى بيت في (شارع ديغو شاير) على بعد ميل من بيتنا، واعتدت أن أذهب إليها سيراً على الأقدام. ولكن في شهر تشرين الثاني من عام 1945 تمكنت من شراء سيارة مستعملة من نوع موريس مجهزة ببعض قطع الغيار التي باتت الآن متوفرة لدى الجيش البريطاني. ومع تحسن أعمالي بعتها بشيء من الربح بعد أشهر قليلة واشتريت سيارة فورد 8V صناعة ما قبل الحرب، وبحالة جيدة. لا بد أن أحد الجنرالات اليابانيين كان يستخدمها أثناء الاحتلال.

وفي عشية رأس السنة أخذت تشو إلى حفلة لشباب في (فيلا ماندالاي) في شارع عنبر، وهي قصر مطلٌ على البحر تعود ملكيته إلى أرملة ثرية جداً تدعى السيدة لي تشون غوان، وقبل أن تنتهي الحفلة أخذت تشو بالسيارة إلى حديقة تواجه البحر. وأخبرتها أنني لن أعود إلى (كلية رافيلز) بل سأذهب إلى إنكلترة لدراسة القانون. وسألتها ما إذا كانت ستنتظرني حتى أعود بعد ثلاث سنوات بعد انتسابي إلى مهنة المحاماة. سألتني تشو ما إذا كنت أعرف أنها أكبر مني بسنتين ونصف. قلت أعرف ذلك. ولقد درست هذا الموضوع بعناية.

كنت أكثر نضجاً ممن هم في سني، ومعظم أصدقائي كانوا أكبر مني سناً على أية حال. لذلك أردت زوجة في مثل نضجي، وليس واحدة لم تنضج حقاً بعد وتحتاج إلى من يعتني بشؤونها، ولم يكن ممكناً أن أجد فتاة أخرى تلائمني وتشاطرني اهتماماتي. قالت: إنها ستنتظر. لم نخبر أبوينا بأي شيء. إذ من الصعب جداً أن نجعلهم يوافقون على التزام طويل الأجل كهذا. هذه هي الطريقة التي كنا نتعامل بها عندما كنا نواجه مشكلات شخصية عسيرة، كنا نواجهها ونحلها. لم نكن نحاول أن نقفز فوقها. المحبة أزهرت. وبدأت أخطط لمغادرة سنغافورة في تلك السنة، سنة 1946.

في شهر آذار (مارس) كتبت إلى (ميدل تيمبيل). وهي واحدة من أربع جمعيات قانونية في لندن، مضمناً رسالتي نتائج شهادة مدرستي. وأجابوني في غضون شهر بأنهم سيقبلونني إذا ما حضرت شخصياً وانتسبت كطالب. وعند استلامي هذه الرسالة اتصلت برائد بريطاني كنت أعمل معه وسألته ما إذا كنت أستطيع السفر على متن إحدى السفن التي كانت بدأت تتقاطر على (تانجونغ باغار) لإعادة القوات إلى بريطانيا كي تُسرّح من الخدمة. أوصلني الرائد إلى الضابط المسؤول عن النقل والسفر، وفي شهر أيار (مايو) التقيت بأحد معاونيه. واستطعت أن أترك انطباعاً جيداً لديه إذ أن قليلاً من السكان المحليين آنذاك كانوا يتقنون الإنكليزية بدون أخطاء قواعدية أو لفظية. شرحت له كل شيء يتعلق بي وبدراستي وعملي بالتفصيل. كان متعاطفاً معي ووعد بالمساعدة. وفي شهر تموز (يوليو) عرض علي فرصة السفر، على متن سفينة لنقل الجنود، تنقلني إلى لندن في شهر تشرين الأول (اكتوبر). وخلال الشهرين اللذين سبقا مغادرتي سنغافورة، كنت أجوب الأسواق مع أمي بحثاً عن ملابس صوفية تناسب شتاء إنكلترة. وجدنا ضالتنا المنشودة في سوق فعلي في شارع سونجي. وهو سوق كان يتعامل بالمسروقات قبل الحرب. وقد دبّت به الحياة من جديد، حيث تباع فيه الآن بضائع مشتراة أو مسروقة من القوات البريطانية. كثير من هذه

البضائع حصل عليها الجنود البريطانيون لاستعمالها إبان عودتهم للحياة المدنية، وقد اشترت أمي صندوقاً خشبياً ضخماً يحتوي على معطف وألبسة رياضية وحقائب وأزياء صممها أمهر خياط في الهاي ستريت.

قبل أن أبحر حرصت والدتي على أن التزم أمامها قبل أن أغادر سنغافورة مع فتاة صينية ما. وبذا لا أعود من بريطانيا مع فتاة إنكليزية. فكان هناك الكثير من الطلبة الذين عادوا مع زوجات بريطانيات، وكانت نتيجة مثل هذه الزيجات تعيسة في أغلب الأحوال. إذ كانت تنهار الرابطة الأسروية وينفصل الزوجان، أو كانت الزوجات يعدن إلى بريطانيا لعدم استطاعتهن العيش في مستعمرة بريطانية حيث كن يعانين من الوحدة وعدم القدرة على الاختلاط، وعرفتني أمي بالمقابل على ثلاث سيدات شابات مناسبات يتمتعن بخلفية مناسبة ومركز اجتماعي جيد. لم أكن متحمساً. كونهن في سن مناسبة وينتمين إلى أسر ذات وضع مريح فضلاً عن أنهن كن مناسبات من حيث الشكل. ولكنهن لم يثرن اهتمامي. كنت سعيداً تماماً لأنني اتفقت مع تشو، وأخيراً قررت أن أعترف لوالدتي بالموضوع. كانت امرأة عاقلة. فعندما تأكد لها أنني جاد في علاقتي مع تشو. توقفت عن البحث عن أخريات. وتبدل موقفها من تشو إلى موقف صداقة حميمة بوصفها حماة المستقبل.

كنت أخبرتها عن تشو، الفتاة التي تفوقت علي باللغة الإنكليزية وامتحانات مادة الاقتصاد في (كلية رافيلز) وكانت قد تعرفت على تشو، عندما كنت أشتغل بالصمغ، وزارت أسرتها. كان والد تشو، واسمه كواسيوتي، يعمل في مصرف شركة صينية مصرفية عبر البحار، وهو مثل والدي وجدتي لأبي صيني من مواليد جافا أما والدتها فكانت صينية من مواليد سنغافورة مثل أمي. لدينا أصل متشابه ونتكلم اللغة ذاتها في البيت وننتمي إلى المستوى الاجتماعي ذاته.

صورة عائلية في أيلول عام 1946 قبل أن أبحر إلى بريطانيا . مونيكا، دينيس، أنا، فريدي، سيوان يو واقفون وراء والديّ.

مع تشو في أيلول 1946 عند خزان ماكريتشي. كنا متحابين وفي سن الشباب.

درست تشو في المدرسة (النظامية للبنات)، ونجحت في امتحانات كامبريدج العليا، وكانت في السادسة عشر من عمرها فقط، عندما انتقلت إلى الصف الخاص في (معهد رافيلز) للطلاب المتنافسين على الحصول على (منحة الملكة) ولكنها لم تحصل عليها. وأخبرتني فيما بعد أنها تنتظر فارس أحلامها. وقد جئتها ليس على ظهر حصان أبيض ولكن على متن دراجة ذات عجلتين! وفي عام 1940 التحقت بـ (كلية رافليز)، والتقينا هناك على موائد العشاء وفي النزهات، ولكنني في ذلك الوقت أبقيت مسافة بيني وبينها، لأنني كنت في سنتي الأولى وكان علي أن أتكيف مع أوقات عصيبة. والأكثر من ذلك أنني لم أكن متلهفاً على إقامة أية علاقة مع أية فتاة لأنني لم أكن مستعداً لأي التزام. واللقاءات الاجتماعية القليلة أو في قاعات المحاضرات كانت دورية ولكنها عرضية. وخلال الفترة بين 1943 ـ 1944 ازداد قرباً أحدنا من الآخر وبدأت أنظر إليها نظرة مختلفة. كانت تشو تجمع ما بين العمل في المنزل، وتعلم لغة الماندرين، وقراءة أية كتب تقع تحت يديها ومستعدة لصنع الصمغ معي.

كانت من أسرة كبيرة العدد تتألف من ثمانية أولاد، ونعمت بطفولة سعيدة في أحضان أسرة محافظة. كان والداها ميسوري الحال إلى حد ما، وكان لدى الأسرة سيارة تقلها دائماً إلى المدرسة، إلى (كلية رافليز) أو إلى حيثما رغبت أن تذهب. وكان لدى الأسرة شعور برفعة المقام، ففي إحدى المناسبات، بعد أن انتقلوا إلى شارع ديفون شاير، جاءت تشو من المكتبة إلى منزلها وهي تركب على مؤخرة دراجتي، الأمر الذي أفزع والدتها. وقد وُبّخت توبيخاً شديداً على ذلك التصرف الذي لا يليق، ما ظن الناس بها!؟ من سيتزوج فتاة كهذه؟ وسرعان ما عادت أسرتها إلى باسير بانجنغ، حيث كانوا يعيشون سابقاً. ومن حسن الحظ أنني كنت أمتلك سيارة آنذاك.

في الأشهر القلقة التي سبقت أيلول (سبتمبر) 1946 أمضينا كثيراً من الوقت معاً. وقبل أن أغادر كان ابن عمي هارولد ليم الذي كان يقطن معنا في، 38 شارع أوكسلي، يلتقط لنا مجموعة من الصور في غضون يومين. كنا شابين عاشقين،

ونتطلع بشوق إلى تسجيل هذه اللحظة من حياتنا، حتى يكون لدينا ما يذكّر أحدنا بالآخر طوال السنوات الثلاث التي سأمضيها في إنكلترة. لم نكن نعرف متى سنلتقي ثانية بعد أن أغادر. تمنينا أن تعود إلى (كلية رافليز) وأن تحصل على منحة الملكة لدراسة القانون وتلتحق بي حيثما أكون. كانت ملتزمة معي تماماً. كنت أشعر بهذا. وقد عزمت من جانبي أن أبقى ملتزماً تجاهها.

عندما غادرت سنغافورة في عيد ميلادي الثالث والعشرين، في السادس عشر من أيلول (سبتمبر) 1946، على متن السفينة (بريتانيك) لوحت لها بيدي من على ظهر السفينة، كانت دموعها تسيل، وكذلك كنت أنا. جميع أفراد أسرتي وبعض أصدقائي، ومن بينهم هو سوي سين، كانوا على رصيف البناء كي يتمنوا لي الحظ السعيد، يلوحون لي بأيديهم مودعين.

5. أيامي في كيمبريدج

كانت سفينة (بريتانيك) التابعة لشركة (كانارد لاينر) تزن 65 ألف طن وتبحر عبر المحيط الأطلسي من ليفر بول إلى نيويورك قبل الحرب. ولم تكن تضارعها سفينة من السفن التي تبحر ما بين ساوثامبتون وسنغافورة من حيث الحجم والسرعة. كانت محملة بالجنود العائدين إلى الوطن للتسريح من الخدمة العسكرية.

وكان على متنها أربعون آسيوياً، معظمهم من الصينيين، ينامون في القمّرة ضعف الوقت الذي ينامه الركاب الذين دفعوا أجراً وقد أسعدني أن أكون واحداً منهم، لم تكن كتبي معي استعداداً للدراسة. لذا أمضيت الوقت في لعب البوكر مع بعض الطلاب من هونغ كونغ. فوجئت على متن الباخرة ببعض الرجال والنساء يمارسون القبل وذات ليلة أخبرني طالب من هونغ كونغ، وعيناه تكادان تخرجان من مآقيهما، أن بعض الرجال والنسوة يمارسون الحب بدون حياء على سطح السفينة. دهشت وأردت أن أرى بنفسي. يا له من مشهد! كان سطح السفينة يعج بالنشاط حيث يتبادل الشبان والفتيات العناق العاطفي. وكانوا يغطون أنفسهم بأغطية قوارب النجاة لتحاشي الأنظار. وكانت المفاجأة الثانية لي عندما عبرت السفينة قناة السويس. كانت تمشي ببطء بحيث لم تكن تصل المياه إلى رمال حافتي القناة. وفيما كنّا هناك كان ثمة بعض العمال العرب الذين يرتدون الجلابية ويلوحون من بعيد بطريقة تدل على كراهيتهم للإنكليز. لم أعرف السبب. فهذه هي المرة الأولى التي أغادر فيها سنغافورة عبر البحار. كنت أكتشف عالماً جديداً من الحب والكراهية، من التحامل والانحراف لدى شعوب مختلفة.

لم يكن أحد في بريطانيا يعلم بقدومي، لذا لم يكن ثمة ترتيبات لاستقبالي عندما وصلت السفينة إلى ليفربول في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر، بعد سبعة عشر يوماً من مغادرتها لسنغافورة. ولما كنت أعلم أن طلاب هونغ كونغ

الذين ترعاهم حكومتهم يُستقبلون من قبل رسميين من (المكتب الكولونيالي) في لندن، فقد عزمت على الانضمام إليهم. وصل قطارنا إلى لندن في ساعة متأخرة ليلاً، وقد لحقت بهم سيارة عامة إلى بيت الضيافة عصبة فكتوريا في منطقة (ايرلزكورت) حيث أعطوني سريراً ذا طابقين في قبو بدون نوافذ. وجدت نفسي مع 20 طالباً من إفريقية ومنطقة الكاريبي. وكانت صدمة أخرى فأنا لم أر أفارقة من قبل إلا في الصور. ولم أكن مستعداً لتقبل روائح أجسادهم الغريبة، إنهم يختلفون عرقياً تماماً عمن أعرفهم في سنغافورة. لم أنم جيداً في تلك الليلة.

كان علي أن أبحث عن مكان آخر للعيش، وبعد 12 يوماً من الإقامة المؤقتة في YMCA، وجدت لنفسي غرفة في 8 شارع فيتزجونز. كان شارعاً جميلاً وهادئاً ومزروعاً على جانبيه بالأشجار، يقع على مسافة قصيرة من محطة (الكوخ السويسري) وموقف الباص رقم 13 الذي ينقلني مباشرة إلى ستراند، بالقرب من (مدرسة لندن للاقتصاد) LES

كان علي أيضاً أن أجد مكاناً في المدرسة المذكورة، وهو أمر ليس بالهين. فالفصل الدراسي كان قد بدأ منذ أسبوعين، والجامعات مليئة بالموظفين والطلاب العائدين. ولكنني استطعت مقابلة عميد كلية الحقوق البروفيسور هيوز باري، وشرحت له كيف أضعت ثلاث سنوات ونصف. وعرضت عليه نتائجي الجيدة في (كيمبريدج العليا) كأحسن طالب في سنغافورة والملايو كي أقنعه بأنني لن أجد صعوبة في اللحاق بزملائي رغم تأخري بالالتحاق في الفصل الدراسي. كان العميد متعاطفاً ومن ثم قبلني.

كانت حياة غريبة «فمدرسة الاقتصاد» تشبه فندقاً مشغولاً بالكامل، وهي تختلف كثيراً عن (كلية رافليز) في سنغافورة، حيث الغرف والقاعات الواسعة. وحيث الطلاب يحضرون دروسهم في مجموعات يتألف كل منها من طالبين أو ثلاثة أو أربعة طلاب على أبعد تقدير. كانت مدرسة الاقتصاد إذ ينبغي أن أندفع

عبر ستراند إلى (كلية كينغ) لحضور محاضرة أخرى، ثم أستقل الحافلة إلى ايستون لحضور محاضرة ثالثة في (يونيفيرستي كوليج) في لندن. وهي أفضل الكليات لأنها بعيدة عن ضجيج لندن. لقد كانت أجواؤها تشعرني بأنها كلية.

جرى حادث مثير في وقت مبكر من السنة الدراسية في قاعة الدخول إلى «المدرسة». فلمدة أسبوع وقف طلاب يمثلون أندية مختلفة في أكشاك صغيرة يحملون منشورات ويطوعون أعضاء جدداً. كان الشيوعيون من أنشط الطلاب القادمين من المستعمرات. كانوا يتخفّون تحت شعار «نادي اشتراكي»، ولكنني سرعان ما اكتشفت هويتهم الماركسية ومحاولتهم خداع الطالبات لجلب الأفارقة والكاريبيين والآسيويين القلائل. انزعجت منهم كثيراً.

كنت أعاني من صدمة حضارية، فالمناخ والملابس والطعام والناس والعادات والأخلاق والشوارع والجغرافيا، وترتيبات السفر. كل شيء، مختلف. لم أكن مستعداً البتة باستثناء: أنني أعرف اللغة الإنكليزية، و على معرفة سطحية بالأدب الإنكليزي، ولدي خبرة سابقة بالتعامل مع استعماريين بريطانيين.

كنت أدفع من أجل المنامة ستة جنيهات في الأسبوع، وهو مبلغ كبير بالنسبة لشخص لا يعمل ولا يكسب نقوداً. ومن حسن الحظ أن نفقة المنامة كانت تتضمن الإفطار. وكان يوجد في الغرفة مدفأة على الغاز وفرن غاز، وكنت أدفع بعض شلنات لاستعماله في الطبخ. كنت قانطاً بالنسبة للطعام. فقد كان يوزع علينا بالحصص (جراية)، أما المطاعم حيث أستطيع أن آكل بدون بطاقة فهي باهظة الثمن. لم أكن أعرف كيف أستخدم البطاقات التي توزع علينا للطعام، وهي لم تكن كافية. ولم يكن لدي ثلاجة. عانيت الكثير في تحضير طعامي، وكان الطعام سيئاً في الكليات الثلاث التي كنت أذهب إليها. وفي الليل كنت أشعر بالبرد والوحدة. وعندما كنت أعود إلى (الكوخ السويسري) كل مساء كنت أشعر بالسعادة لأنني لن أعود إلى (الغيتو) الطلابي. ولكنني كنت وحيداً دوماً. ففي البيت نفسه كان كل واحد يذهب إلى غرفة ويغلق الباب على نفسه، إذ لا توجد

غرفة طعام أو جلوس مشتركة، وفي الصباح يأتيهم الإفطار إلى غرفهم أو يحضرونه بأنفسهم. وعندما كنت أواجه صعوبات في تدبير أمور معيشتي كنت أتحدث مع فتيات بريطانيات، يعملن سكرتيرات ويشتركن في غرفة السقيفة، وكنّ يقدمن لي النصائح والإرشادات العملية والمفيدة. فالأمر يختلف هنا عن سنغافورة حيث كان يقدم لي كل شيء. أما هنا فعلي الاعتماد على نفسي في كل الأمور، وبالإضافة إلى مشقة الانتقال من مكان إلى آخر مما كان يضعف من طاقتي من أجل الدراسة والتفكير.

ذات يوم وبعد محاضرة بالقانون الدستوري، اقتربت من المحاضر غلانفيل وليافر. عرفنا أنه متخرج من كلية سانت جونز جامعة كيمبريدج، حيث نال شهادة الدكتوراه. سألته عن كيمبريدج والحياة فيها. قال: إنها مدينة صغيرة تقع الجامعة في وسطها، وهي تختلف كثيراً عن لندن، والحياة فيها أكثر متعة. والطلاب والأساتذة يتنقلون فيها على الدراجات. فشجعني ما قاله، وعزمت على زيارتها.

ذهبت في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1946 وقابلت طالباً من (كلية رافليز) يدعى سيسيل وونغ، كان قد التحق بـ (فيتنز وليام هاوس)، وهي مؤسسة تعليمية لا تعتبر كلية، مخصصة للطلاب الفقراء حيث رسومها منخفضة للغاية. أخذني سيسيل للتعرف على المراقب و. س. ثاتشر، وهو منصب يعادل عميد الكلية. كان رجلاً غير عادي، فقد حصل على وسام الصليب العسكري في الحرب العالمية الأولى لخدمته في فلاندرز، حيث أصيب بجرح خطير. كان وجهه مشوهاً ويتلعثم في كلامه بسبب إصابته في حنكه. كان مسيحياً شديد الإيمان ويتعاطف كثيراً مع المظلومين. وكان يحظى بمحبة الطلاب والأساتذة على حد سواء. شرحت له متاعبي. فتعاطف معي وعرض علي أن يأخذني في تلك السنة التعليمية ذاتها عندما يبدأ فصل (لينت) في بداية كانون الثاني (يناير) 1947، وعرض أن أشترك مع صديقي سيسيل في الغرفة نفسها. وافق سيسيل على

الفور. كنت سعيداً للغاية وشديد الامتنان. عدت إلى لندن وأنهيت أشغالي وحزمت حقائبي. وفي بداية كانون الثاني أخذت القطار من محطة (كينغ كروس) ووصلت إلى كيمبريدج بعد قرابة ساعتين، ثم ركبت سيارة أجرة متوجهاً إلى غرفة سيسيل في 36 شارع بلفور.

بعد أسبوعين كتبت رسالة إلى البروفيسور هيوز باري أعلمه فيها أنني قررت ترك (مدرسة لندن لعلم الاقتصاد LES) والالتحاق بكمبريدج بدلاً منها. ثم استلمت منه رسالة غاضبة جاء فيها: «أود أن أذكرك أنني فعلت كل ما بوسعي لإقناع المسؤولين في هذه المدرسة لقبولك، في وقت لم نكن نقبل فيه أحداً. تصرفك يدل على أنني كنت مخطئاً في تقديري لك وأنه ما كان ينبغي أن أساعدك». عندما وصلتني هذه الرسالة قررت أن أقابله شخصياً. فجئت إلى مكتبه وشرحت له كم كانت الحياة صعبة بالنسبة لي في الفصل الأول، وأنني جئت من مدينة صغيرة ووجدتني كالضائع في مدينة كبيرة يُعد سكانها بالملايين، ولا أعرف فيها أحداً. والأكثر من ذلك أنني لا أستطيع أن أطعم نفسي.

أصغى إلي جيداً، لا بد أنه شعر بصدق ما أقول لأنه سألني لماذا لم أخبره بمتاعبي؟. كان بوسعه أن يؤمن لي إقامة في مكان يوفر لي كل ما أحتاج إليه. عندما أتذكر تلك السنوات الآن أشعر بالسعادة لأنني لم أسكن في لندن، إذ لو سكنت فيها لكانت حياتي بائسة، ولكنني كنت أشعر دوماً بالأسى لأنني خذلته بعد أن صنع معي معروفاً. وعندما أصبح نائب رئيس جامعة لندن في أواخر السبعينيات، وكنت أنا رئيساً لوزراء سنغافورة، فكرت أن أكتب إليه، ولكنني وجدت من الأفضل أن أتجاهل الموضوع. ربما كان من الأفضل أن أكتب لأقول له: إنني لم أنس معروفه.

لندن تعوض للإنسان وتعطي دروساً لمن سيصبح محامياً في المستقبل. أحد الناس الذين كان لهم تأثير عليّ في الفصل الأول في (مدرسة لندن لعلم الاقتصاد) هو هارولد لاسكي، أستاذ العلوم السياسية. فمثل كثير من الطلاب

الذين لم يكن اختصاصهم العلوم السياسية كنت أحضر بعض محاضراته. كان متحدثاً ساحراً، لا يعطي شكله انطباعاً حسناً، ولكنه كان يتمتع بذهن وقّاد. وكان لنظرياته الاشتراكية الماركسية تأثير عميق في كثير من الطلاب القادمين من المستعمرات، ممن سيستلم بعضهم السلطة في بلادهم ويديرون شؤون اقتصادياتها المتخلفة وفقاً لسياسات قائمة على ما تعلموه من لاسكي. وكان من حسن حظي أنني تابعت بعض هذه الاقتصادات المخففة مما جعلني أستخلص العبر المفيدة قبل أن أستلم أي منصب في بلادي.

المحاضرتان أو الثلاث محاضرات التي حضرتها للاسكي كانت بداية اطلاعي على النظرية العامة للاشتراكية، والتي انجذبت إليها على الفور. لقد تأثرت بها لأنها تحقق العدل، فكل فرد في هذا العالم ينبغي أن يُمنح فرصة متكافئة في الحياة، ولأنه في المجتمع العادل لا يكون هناك فروق كبيرة في الثروة بين الناس، بسبب المركز أو المنزلة. لم أكن أميز بين مختلف الأعراق والشعوب. كنا جزءاً من الإمبراطورية البريطانية، وكنت أعتقد أن الإنكليز يعيشون حياة مرفهة على حساب الدول التابعة لهم. لذا كانت الأفكار التي يمثلها لاسكي في ذلك الوقت جذابة بالنسبة للقادمين من المستعمرات. كنا جميعاً نريد الاستقلال بحيث نستطيع أن نحافظ على ثرواتنا لأنفسنا.

وفكرت بعد ذلك بأن الثروة تعتمد بالدرجة الأولى على امتلاك الأراضي والموارد الطبيعية، سواء كانت أراضي غنية وفيرة الأمطار من أجل الزراعة، أم غابات، أم معادن ثمينة، أم نفط أم غاز. ولم أعرف إلا بعد أن استلمت السلطة بسنوات في بلادي أن حسن الأداء يتفاوت بدرجة كبيرة ما بين مختلف الأعراق في سنغافورة، وبين مختلف الفئات في العرق الواحد. وبعد أن جربت عدداً من السبل لتقليص عدم المساواة فشلت، وبدأت أستخلص بالتدريج أن العوامل الحاسمة هي الناس وقدراتهم الطبيعية، وثقافتهم وخبراتهم العملية. أما المعرفة وامتلاك التكنولوجيا كانا عاملين حيويين لخلق الثروة.

كانت اشتراكية لاسكي غنية بالتحليل الماركسي. أتفق مع الماركسيين أن الإنسان يستغل أبناء جلدته من خلال امتلاك رأس المال أو سلطة أكبر. ولما كان إنتاج الإنسان أكثر من حاجة استهلاكه كي يبقى حياً، فإن الفائض يستفيد منه صاحب العمل أو مالك الأرض. واختلافي مع الشيوعيين ناجم عن أساليبهم اللينينية وليس عن الأفكار الماركسية المثالية. لقد رأيت كم كان الحزب الشيوعي في سنغافورة شديد القسوة بعد أن استسلم اليابانيون، فراح أعضاؤه ينتقمون من كل من كانوا يشكّون في أمره أو ممن عمل مع العدو أو لأية تهمة أخرى دون التثبت من الحقيقة. كانت مواقفهم تتصف بالعنف والعدوانية. وفي (مدرسة لندن لعلم الاقتصاد) لاحظت لدى الشيوعيين الخصال السيئة ذاتها، إنهم لا يتورعون عن أية وسيلة دنيئة لتحقيق أغراضهم أو لتزوير الحقائق، بما في ذلك استخدام السيدات الجذابات اللاتي كن على استعداد لمصادقة طلاب المستعمرات الذين يشعرون بالوحدة. وكانوا يخدعون من يجهل حقيقة أمرهم وذلك بتسمية أنفسهم (النادي الاشتراكي).

قرأت في الصحف البريطانية أيضاً كيف استخدم الروس جيوشهم المحتلة لخلق أنظمة حكم شيوعية في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا. وقرأت الكثير الكثير عن مظالم الروس الشيوعيين في أوروبا الشرقية، وعن مظالم الحكومات التي أوجدوها. وكان لها تأثير سيء في نفسي، وتركت لدي انطباعاً عميقاً زاد من كراهيتي للشيوعية.

ولكن فكرة مجتمع المساواة والعدل والخير كانت تروق لكثير من طلاب المستعمرات، كما كانت تروق لهم أفكار الفابيين البريطانيين الذين كانوا ينادون ببناء هذه الدولة المثالية خطوة خطوة بحيث لا يكون ثمة حاجة إلى ضرب أعناق الأغنياء ومصادرة ثرواتهم. فعلى مراحل، وبدون إثارة الاضطراب في اقتصاد البلاد أو خلق ثورة اجتماعية، فإن الأغنياء سوف يحرمون من ثرواتهم عن طريق الضرائب في حياتهم، ومن خلال القيود العقارية الثقيلة بعد وفاتهم. وعلى

أولادهم أن ينشأوا وينطلقوا في هذا العالم كشأن أولاد الفقراء. ولا أرى ضيماً في هذا. كنت صغيراً كي أدرك أن المحامين البريطانيين كانوا من الدهاء بحيث لا تستطيع الحكومة أن تحصل على كثير من الضرائب العقارية.

كنت منجذباً بشدة إلى المقاربة الفابية بحث بقيت لسنوات بعد عودتي من بريطانيا أشترك في مجلات الفابيين ونشراتهم. ولكن منذ بداية السبعينيات بدأت أشعر أن أفكارهم غير منطقية ولا تتفق مع الواقع، إحدى هذه المسائل ماتزال لاصقة في ذهني. كانت عن التربية. إذ كتب أستاذان كبيران مقالة خطيرة تفيد أن مدارس بريطانيا الشاملة فاشلة لا لأنها سيئة، بل لأن أفضل الأساتذة ما زالوا يدرسون أفضل الطلاب. وأفضل الأساتذة ينبغي أن يدرسوا أضعف الطلاب الذين يحتاجونهم من أجل أن يكونوا متساوين. فالطلاب الجيدون يستطيعون تدبير أمورهم على كل حال. هذه المقاربة المفروضة لم أتقبلها. أوقفت اشتراكي. وهذا ما جعلني أبتعد عنهم وعن قراءة منشوراتهم.

كانت كيمبريدج مريحة جداً لي بعد لندن. وفي السنوات التي تلت الحرب مباشرة كانت مدينة ريفية هادئة. فحركة المرور فيها هادئة ـ كثير من الدراجات الهوائية، وقليل من السيارات الخاصة والباصات والشاحنات. معظم الأساتذة والمدرسين والمحاضرين وزملائي في الكلية كانوا يركبون الدراجات. اشتريت دراجة مستعملة لنفسي بثمانية جنيهات. كنت استخدمها في كل مكان، حتى تحت المطر. كانت الدراجة أمراً أساسياً وكانت تسلم من طالب لآخر خلال العشرين سنة الماضية أو أكثر. سرعان ما تعودت على روتين حياتي الجديد. ولم يعد لدي مشاكل كثيرة مع وجبات الطعام. كان الطعام جيداً ومتوفراً، وفيه ما يكفي من الكربوهيدرات والبروتينات رغم أنه بريطاني جداً ولا أستسيغه وهو يفتقر إلى التوابل، ولكن رغم وجباتي الملائمة وحرصي على ركوب الدراجة في الهواء الطلق اكتشفت عندما عدت إلى سنغافورة وأجريت فحصاً لصدري بأشعة اكس (بأنني مصاب ببداية عدوى السل وحمدت الله على أنني كنت في كمبريدج، وليس في غيرها وإلا لكانت الإصابة أشد).

قررت من أجل التمرين أن أنتسب إلى «نادي القوارب». كان عليّ أن أتمرن أولاً على عدة أمور ذات علاقة بالجذيف. وبعد تمرينين في الأسبوع ولمدة ثلاثة أسابيع، انتقلت إلى التمرين على القارب. وبعد ظهر جولتي الثانية هبت عاصفة ثلجية واعتبرت أن التمرين قد ألغي. أصبت بخيبة أمل، واعتبرت البريطانيين مجانين، وتركت نادي القوارب. بعد ذلك كان الدوران بالدراجة حول كيمبريدج كي أتلقى المحاضرات، ومن ثم كنت أتوجه إلى «فيتز وليام هاوس» لتناول وجبة الطعام، وهذا ما حسن أدائي.

كان طلاب الصف في قسم تأهيل طلاب الحقوق صغيراً لا يتجاوز 30 طالباً بالمقارنة مع عدد هذا الفسم البالغ 200 طالب في لندن. كان معظم الطلاب الذين التحقوا بالكلية من المستخدمين السابقين، الذين مُنحوا إعفاء خاصاً كي يحصلوا على درجة في سنتين بدلاً من ثلاثة، وبالتالي يذهبون مباشرة إلى السنة الثانية. وخلافاً لهم كان عليّ أن أتأهل في السنة الأولى ثم أتابع ثلاث سنوات. الطلاب الذين كانوا يدرسون معي كانوا شباباً تتراوح أعمارهم بين 18 و19 سنة جاؤوا مباشرة من المدارس. كنت في الثانية والعشرين من عمري. كان هناك بعض الرجال من ماليزيا، ومن بينهم يونغ بونغ هاو، في العشرينيات من العمر، ومن كوالا لامبور. (الذي أصبح مسؤول العدالة في سنغافورة عام 1990) ولما فاتني الفصل الأول، فقد أعارني بونغ هاو مذكراته. كانت واضحة ومستوعبة جيداً ومُلخصة لما فاتني. كانت مفيدة جداً لي لأن منهج كيمبريدج مختلف عن منهج السنة الأولى في جامعة لندن. وخلال عطلة عيد الفصح استعدت ما فاتني وانتظمت في عملي. وفي أيار عندما أجريت امتحانات التأهيل الأولى كنت مستعداً على نحو جيد. وبعد ثلاثة أسابيع، في شهر حزيران، عندما أعلنت نتائج الامتحان كان اسمي بين قلة في الصف الأول. هاتفت إلى أهلي لأخبرهم بالأنباء الجيدة.

صورة محببة إلى تشو في شتاء بريطانيا القارص، في كانون الثاني 1947

كنت سعيداً ولم أنزعج من الرقيب. قابلني بيلي ثاتشر، كما كان يعرف من قبل طلابه، خارج فيتز وليام فيما كنت أصفّ دراجتي كي أذهب إلى غرفة الطعام. توقف ليهنئني. شعرت أنه كان مسروراً. كان قد أخبرني عندما رأيته في كانون الأول عام 1946، عندما تلتحق بكيمبريدج فأنت تلتحق بجامعة ذات خصوصية. عليك أن تتمتع بهذه المزية. وعندما أجبت أنني سأحاول الحصول على «الدرجة الأولى» نظر إلي بوقار وقال: «لي لا تصب بخيبة الأمل إذا لم تحصل على ذلك. ففي أوكسفورد وفي كيمبريدج أنت تحتاج إلى تلك اللمعة السامية، تحتاج إلى شيء غير عادي قبل أن تصبح الأول». كنت مرتاحاً لأن الممتحنين في كيمبريدج وجدوا أن لدي شيئاً ما غير عادي.

وبروح معنوية عالية اشتريت لنفسي دراجة نارية مستعملة، من مخلفات الجيش، قد لا يسرّ مظهرها كثيراً ولكن محركها جيد. كلفتني ما يقارب الستين جنيهاً. لقد أصبحت فجأة من راكبي الآليات المتحركة. رحت أتجول في جميع أنحاء كيمبريدج وأشاهد أماكن من الممكن مشاهدتها عن طريق الباص أو القطار. بل أستطيع أن أتوقف وأشتري الكرز أو التوت حيث وضع المزارعون لافتات يدعون فيها الناس إلى الاقتراب والتقاطها أو شرائها.

في نهاية شهر حزيران (يونيو) كتبت لي تشو تقول: إنها حصلت على شهادة وكانت الأولى في الترتيب. ولديها الآن فرصة طيبة للفوز بالمنحة الملكية للدراسة في إنكلترة. كنت متفائلاً. وفي نهاية شهر تموز (يوليو) تقريباً جاءت أحلى الأنباء، برقية من تشو تفيد أنها حصلت على منحة الملكة. ولكن (مكتب المستعمرة) قد لا يجد لها مكاناً في أية جامعة في السنة الدراسية التي تبدأ في تشرين الأول (أكتوبر) 1947. لذا عليها أن تنتظر حتى عام 1948. كنت متحفزاً للقيام بعمل ما، ولكنني كنت محتاراً لا أعرف كيف آتي بها إلى كمبريدج. قابلت السيد باريت، المسؤول الأول في (فيتزوليام) كان رجلاً كفوءاً متمرساً في أواخر الأربعينيات من العمر. عرف مئات الطلاب الشبان من خلال عمله يأتون

ويذهبون. كان يعرف أن المراقب يحبني. حكيت له موضوع تشو وحصولها على أعلى منحة للدراسة في بريطانيا، وأنها تريد أن تدرس القانون. كيف تستطيع ذلك في هذا الوقت؟

قال لي وقد برقت عيناه: (أنت تعرف أن المراقب يعرف الآنسة تبلر، رئيسة (جيرتون) جيداً. إذا استطعت أن تجعله يتحدث إليها فالأمر عندئذ سيختلف). وشعرت بأن هناك بارقة أمل.

بقي شهران حتى تبدأ السنة الدراسية الجديدة. طلبت مقابلة المراقب. لم يستقبلني فحسب، بل كان راغباً في المساعدة. وفي الأول من آب (أغسطس) كتب إلى الآنسة تبلر، كما كتب إلى المسؤول نيونهام، مسؤول كلية البنات الأخرى في كمبريدج. كلاهما جاوب على الفور. قدم نيونهام مقعداً في عام 1948. أما السيدة بتلر كانت أكثر إيجابية فقد عرضت شاغراً في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1947 كانت جيرتون قد استبقته لحالات خاصة، وقدمته إلى تشو لأنها تتمتع بمؤهلات القبول. كتب إلي ثاتشر مُرسلاً إلي الطلبين واندفعت إلى (دائرة الامتحانات) قرب شارع سيلفر الممتد على طول نهر كام. أعلمتهم بالسنة التي حازت فيها تشو بشهادة كيمبريدج العليا ـ عام 1936. دققوا في نتائجها وأعطوني نسخة مصدقة. كانت الأولى في سنتها. طلبت بعد ذلك أن أقابل الآنسة بتلر في غريتون. كانت راغبة في رؤيتي. وقد وصلت في الوقت المناسب من صباح 6 آب (أغسطس). أخبرتها عن الآنسة وتفوقها في دراستها في (كلية رافليز)، وكيف كانت تتفوق علي في كثير من المواد. كما أخبرتها أنني متفوق في دراستي هنا، وهي لن تكون أقل مني جدية وكفاءة. كانت السيدة بتلر ودية في مقابلتها معي ويبدو أنها أُعجبت بالطريقة التي أثني بها على صديقتي. وفي اليوم نفسه أبرقت إلى تشو: (وافقت غريتون. المراسلات الرسمية ستأتي فيما بعد. إنك أهل للثناء والإطراء). غادرت سنغافورة على متن سفينة للجنود في أواخر شهر آب (أغسطس). كنت أنتظرها بفارغ الصبر على رصيف الميناء

عندما وصلت أخيراً إلى ليفربول في بداية شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وكنت مفعماً بالسعادة لرؤيتها بعد سنة طويلة من الفراق. توجهنا على الفور إلى لندن بالقطار وبعد قضاء خمسة أيام هناك انتقلنا إلى كيمبريدج.

الآن باتت أموري منتظمة وأعرف طريقي. ولكن كانت هناك مشكلات جديدة. فقد أعطاني السيد باوندز، أمين الصندوق في (فيتزوليام) غرفاً تبعد ثلاثة أميال عن جنوب كيمبريدج. كنت مذعوراً فقد كانت (غريتون) شمال المدينة. حاولت جهدي أن أحصل على غرفة أقرب لتشو ولكن على غير طائل كان السيد باوندز صارماً. فلجأت إلى المراقب فكان رده أبوياً وينطوي على شيء من الدعابة:

عزيزي لي:

«...أخبرتني أن أمامك طريقاً طويلاً لترى خطيبتك أو زوجتك في المستقبل كما تتمنى أن تكون، لن يكون هذا بعيداً، لا سيما وأن الحب يمدك بقوة حافزة. لا أعرف ما إذا كنت قد قرأت الأساطير العظيمة، ولكنك قد تتذكر ذلك النبيل الذي كان يسبح كل ليلة في البوسفور ليشاهد معشوقته. الذهاب إلى غريتون يعتبر أمراً يسيراً بالمقارنة مع هذا. من دواعي الأسف أن ذلك النبيل غرق في إحدى الليالي وهو يحاول ذلك. ولكنني لا أحسب أنك ستموت من الإعياء على الطريق. وإذا استطعت أن تجد مكاناً قرب غريتون فسنقوم بكل جهدنا لمساعدتك، إذا كنت تريد أن تأتي وتفتش فافعل ذلك.

«بالمناسبة، أنا لست متأكداً أن غريتون سترحب بزواجك من السيدة الشابة بسرعة بالغة، إذ من الطبيعي أن يفترضوا أنه عند بارقة الحب الأولى لا بد من فعل الكثير. ولكنني طاعن في السن وقد لا أستطيع أن أقدم نصيحة تتعلق برجل وما يراه بعينه.

المخلص د .ثاتشر»

وبعد أسبوع وجدت غرفة قرب فيتز وليام (عند اسطبلات كابتن هاريس). كنت الطالب الوحيد المستأجر عنده. كان يتقاضى مني سعراً باهظاً، ما يقارب 9 جنيهات في الأسبوع للمنامة والإفطار فقط، مع استخدام الحمام والأشياء الأخرى مجاناً. لم يكن أمامي خيار. كانت غرفة مريحة. كان علي أن أبقى فيها طوال السنتين القادمتين إلى أن أغادر كيمبريدج في صيف 1949.

الآن جاء دور تشو في مواجهة الصدمة الثقافية، لم تكن معتادة على السترة الصوفية الثقيلة التي جلبتها معها، والمعطف الثقيل والجزمة الشتوية الطويلة. كانت ثقيلة بالنسبة إليها. (وغريتون) تبعد مسافة ميلين عن المدينة. لم تكن تستطيع ركوب الدراجة، وكان عليها أن تركب الباص. ولم تكن معرفتها بالاتجاهات جيدة. لقد جاء دورها كي تواجه المتاهات.

بعد بضعة أسابيع من الترتيبات المتعبة قالت لي: إنها وجدتني قد تغيرت. لم أعد ذلك الرفيق المرح المتفائل والذي يستطيع القيام بأي شيء، والمستمتع بمباهج الحياة. على الرغم مما قُدم لي من معروف ولاسيما لطف المعاملة من بيلي ثاتشر، ومزاجي الرائق أثناء صيف 1947 المجيد، بدوت معادياً بشدة للإنكليز ولاسيما لحكمهم الاستعماري للملايو وسنغافورة، الذي قررت أن أضع له نهاية. سنة واحدة في لندن وكيمبريدج قد بلورت متغيرات في داخلي بدأت مع الاحتلال الياباني لسنغافورة عام 1942. أنا أرى الآن البريطانيين في عقر دارهم وأتساءل عن قدرتهم على حكم هذه المناطق لمصلحة سكانها المحليين. أولئك القابعون هنا غير مهتمين بتقدم مستعمراتهم؛ بل يهتمون بالمراكز العالية التي يحصلون عليها والرواتب العالية التي يتقاضونها. وعلى المستوى الوطني كانوا يهتمون بالدرجة الأولى بالحصول على العملة الصعبة لقاء صادرات الملايو من المطاط والقصدير وما يتقاضونه من دولارات تعزز جنيههم الإسترليني الضعيف.

بعد بوح تشو المفاجئ بدأت أتفقد ذاتي لأرى ما حدث. لعل الأمر بدأ بالتحامل العرقي لدى الطبقة العاملة البريطانية، لدى المشرفين على الحافلات، لدى البائعات والنادلات في المحلات والمطاعم، والسيدات اللواتي قابلتهن في بحثي عن مأوى. عدة مرات ذهبت إلى بيوت مسجلة تحت عنوان (غرف للإيجار) قرب محطة الكوخ السويسري. وما إن أعلمهم أنني صيني حتى يقولوا: إن الغرف شُغلت. بعد ذلك رحت أستبق هذه المشكلة بإعلامهم على الهاتف. أن اسمي (لي) وأنني صيني. إذ كانوا لا يريدون صينياً فليوفروا علي إذن مشقة الترحال والمجيء إليهم.

البريطانيون الذين قابلتهم في أعلى السلّم الاجتماعي - من الأساتذة وأمناء المكتبة في كيمبريدج (ميدل تيمبل) كانوا مثقفين ومهذبين ويمدون يد العون، وإن كانوا متحفظين قليلاً. والطلاب البريطانيون كانوا بصورة عامة على درجة جيدة من حسن الطباع، والمودة، وهم على صواب دوماً. ولكن كان هناك تمييز عرقي عندما يتعلق الأمر بالتنافس في الألعاب الرياضية. كان من الصعب على أي آسيوي أن ينتسب إلى فريق رياضي مهم كفريق الكريكيت أو الرّكبي أو رياضة التجذيف التي كانت تعتبر الأكثر رقياً.

قد لا يعود التمييز العنصري إلى اللون وحده. إنه تمييز طبقي. تمييز ضد شخص يأتي من بلاد الغربة. حتى بين الطلبة البيض أنفسهم يتميز الطلاب القادمون من المدارس العامة (اليمينية)، وهم يحصلون عادة في المستقبل على مراتب عليا في المجتمع والدولة. وهم يتمنون أن يحصلوا على ألوان الكلية لأنها ستكون مصدر قوة لهم في المستقبل، فبمجرد تضمينها طلب التأهيل لعمل ما ستكون جسراً يصل بهم إلى أشياء عظيمة، وسيجدون وظائفهم بانتظارهم. وأن يكون أحدهم رئيساً لجمعية اتحاد كيمبريدج، فإن هذا يؤهله لأن يصبح مرشحاً محتملاً في إحدى الدوائر الانتخابية التابعة لحزب العمل، أو لحزب المحافظين. أو تمكنه من الحصول على عمل في قسم الأبحاث التابع لأحد الحزبين. كذلك

كان ثمة تنافس حاد بين الآسيويين، ولاسيما الهنود، على انتخابات (جمعية الاتحاد)، ولكن يصعب فهم ذلك لأن الهند والباكستان كانتا، منذ عام 1947 في طريقهما إلى الاستقلال. وقد فاز أحد الطلاب من سيلان في (ترينيتي هول) أميناً عاماً (لاتحاد الطلاب). وتساءلت ما إذا كان هذا يفيد في أن يصبح زعيماً في سيلان الحرة؟.

لم أكن معنياً بمثل هذه الأمور. فقد عزمت على التركيز بأن أكون (الأول) لأن هذا سيكون له شأنه عندما أعود إلى سنغافورة.

في تلك الأثناء كنت أتناقش أنا وتشو حول حياتنا في بريطانيا وأعيننا على المستقبل. وقررنا أنه سيكون من الأفضل إذا ما تزوجنا بهدوء في شهر كانون الأول (ديسمبر) أثناء عطلة عيد الميلاد، وأن نبقي ذلك سراً. فوالدا تشو قد لا يوافقان وسوف ينزعجان من هذا الأمر، كما أن (كلية جريتون) قد لا توافق، كما ذكرني المراقب في رسالته، وسلطات المنحة الملكية قد تثير العقبات. كنا في سن النضوج، في أواسط العشرينيات من العمر، وصممنا على قرارنا. ونصحنا صديق لنا من بريطانيا بأن نقيم في ستراتفورد ـ أون ـ آفون، وهي المنطقة التي يعيش فيها، كمكان نمضي فيه عيد الميلاد، ثم نزور مسرح شكسبير الشهير. وما إن وصلنا حتى قصدنا المأذون المحلي الذي يسجل عقود الزواج. وبعد أسبوعين من الإقامة كنا متزوجين. في طريقنا إلى ستراتفورد أون آفون توقفنا في لندن، حيث اشتريت لتشو خاتم زواج من البلاتين من بائع المجوهرات في شارع ريجينت ولكن عندما عدنا إلى كيمبريدج وضعت الخاتم في سلسلة حول عنقها.

رغم هذا التبدل الذي طرأ على حياتنا كنا نعمل بدأب وانتظام في دراستنا. ولكن تشو كانت تواجه بعض المشاكل في دراستها في السنة الثانية. وجاءت الامتحانات ثانية في أيار (مايو) 1948، وعُلقت النتائج في حزيران. حصلت على مرتبة الشرف في الصف الأول (Tripos I) وحلت تشو في المرتبة الثانية في كلية

الحقوق. وقررنا أن نأخذ إجازة أسبوعين في كونتينت. تجنبنا الرحلات السياحية الجماعية، وارتأينا أن نمضي خمسة أيام في باريس، ثم نمضي أسبوعاً في سويسرا.

ثمة حادثة في لوغانو ما تزال عالقة في ذهني حتى اليوم. نظر إلي موظف الاستقبال في الفندق وسألني ما إذا كنت صينياً؟.

قلت له: نعم لكن من سنغافورة.

قال: (آه، تشان كاي تشيك).

لم يكن يعرف الفرق بين سنغافورة والصين، ولم أكن فخوراً بتشان كاي تشيك. لقد تمت ملاحقته من قبل جيش التحرير الشعبي في بلاد الصين. لكنني نشأت على توقع هذه المقولة النمطية على معاملة الأوروبيين لي على أنني رجل صيني

تمتعت مع تشو بأفضل أيام العطل في حياتنا، ما بين النزهات والمشي وتناول الطعام والشراب والبيرة والنبيذ والشامبانيا.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) عدنا إلى كيمبريدج لقضاء السنة الأخيرة. كنا نتابع المحاضرات ونكتب الوظائف المقررة علينا لنقدمها للمشرف. ونقرأ في المكتبة أو في غرفتي. ولكن الحياة لم تكن عملاً كلها. كنت أستمتع أنا وتشو بأوقات فراغنا، وندعو أحياناً بعض الأصدقاء من سنغافورة ممن يدرسون هنا. وكانت تشو تتفنن بتحضير الأطعمة الشهية لضيوفنا.

في هذا الوقت كنا في وضع جيد ولي علاقاتي الطيبة مع أشخاص مهمين. قررت أن أتعلم على يد أفضل مدرسي الحقوق في كيمبريدج كانوا رفاقاً في ترينيتي هول، أفضل كلية حقوق آنذاك، ولكن بعد أن تسجلت في الدرجة الأولى في نهاية السنة الأولى كنت قادراً على إقناعهم بالإشراف علي رغم أنني كنت في "فيتز وليام". وكان من أفضل المشرفين علي تريفور توماس الذي كان يتمتع بعقل

منهجي واضح ومتميز. كما رافقت قلة من الطلبة البريطانيين، وبعضهم كان من أعضاء (النادي العمالي) في الجامعة، ثم أصبحوا فيما بعد من مرشحي حزب العمال في الانتخابات العامة سنة 1950. وانتسب منهم آخرون إلى فروع أخرى من فروع دراسة القانون وأصبحوا من الأساتذة المتميزين في القانون الدولي أو القانون المقارن أو الصناعي. كانوا زمرة متميزة ورفقة طيبة.

في شباط عام 1949 مثّلت كيمبريدج في مناقشة أعجبت المحكمين. ولكنني لم أتابع المشاركة في مثل هذه المناقشات، إذ لم أجد من الحكمة أن أعرض أفكاري قبل أن أتفق مع زملائي على التوجه الذي سنتخذه عندما نعود إلى سنغافورة.

ولقد أتيح لي عندما كنت في لندن أن أزور (مجلس العموم). في عدة مناسبات كي أستمع إلى الخطب. بعض أعضاء حزب العمال كانوا وديين تجاه طلاب المستعمرات (خلافاً للمحافظين الذين كانوا ينزعجون من مطالبتهم بالحرية). فقد قابلني فينر بروكواي، النائب عن إيتون وسلو في (القاعة الكبرى) في ويستمنستر ليعطيني بطاقة لدخول متحف سترينجرز للوحات. أما ستانلي أوبيري (الذي أصبح فيما بعد لورد أوبيري) فكان مثل فينر بروكواي، مؤيداً لضحايا الاستعمار. كان بين العماليين خطباء بارزون. أذكر منهم ستافورد كريبس، وفي زيارتي الأولى للمجلس عام 1947 الذي تفوق بقوة على خصمه المحافظ، المسؤول عن شؤون المستعمرات بشكل ملحوظ. كان يتمتع بذكاء لمّاح.

أدينا امتحانات الحقوق النهائية في أيار (مايو) 1949، وعندما ظهرت النتائج في حزيران كنت راضياً إذ كنت الأول وفزت بوسام التفوق في لائحة الشرف في (لو تريبوس) النهائية. كذلك كانت تشو الأولى، وقد أبرقنا إلى أهلينا بهذه الأنباء الطيبة. لقد كان طابعاً مميزاً للمرحلة التالية من حياتي. وكان على الطالب قبل التخرج، أي قبل أخذ شهادته، أن يمضي تسعة فصول على الأقل، حسب قواعد الجامعة. وكان على تشو أن تبقى في كيمبريدج ستة فصول

(terms)، وأنا ثمانية فصول. وكان لا بد من دفع بعض النفقات الخاصة قبل أن يُسمح لنا بالحصول على شهادتينا في 21 حزيران (يونيو) من ذلك الصيف. وإلا كان علينا أن نبقى في كيمبريدج لفصل آخر، وأن تبقى تشو لمدة ثلاثة فصول قبل أن نَستطيع التخرج.

كيمبريدج تحافظ على تقاليد قديمة أصبحت أكثر جاذبية مع السنين، وهي تضاف إلى مكانتها كموقع عتيق للتعليم. وفي «يوم الحشد» كان الطلاب يشكلون صفاً وفقاً لأقدمية كلياتهم، يترأسه أساتذتهم، ويدخلون إلى «المجلس الأعلى» قرب مدارس الحقوق. وكان يقودنا بيلي ثاتشر ـ كمراقب مسؤول ـ شخصياً إلى الأمام. أما فيتز وليام فكان في آخر الصف لأنه ليس عضواً في الكلية. بعد ذلك كنا نلتقط الصور مع العمداء والطلاب الآخرين فوق المرج الأخضر خارج مجلس الشيوخ. إذ كثير من الأساتذة المحاضرين الحقوقيين، الذين علموني وعلموا تشو بوصفهم مشرفين من «ترينيتي هول»، كانوا هناك للمشاركة في المرح والبهجة، ومن بينهم ترفور توماس. وقد سجل بونغ هاو هذه اللحظة بآلة تصويره.

ثم تفرقنا في غرف تريفور توماس في «ترينيتي هول» للاحتفال بالمناسبة ولشرب الشامبانيا. وانضم إلينا د. ث. إليس لويس، الذي كان يدعى تحبباً بـ «تيل»، وكان مدرساً لنا. قال لنا (إذا كان غلاماً أرسلوه إلينا في «ترينيتي هول»). وعندما ولد طفلنا الأول، لونغ، عام 1952، كتبت إلى كبير الأساتذة لحجز مقعد له. ولكن بعد 19 عاماً، عندما ذهب لونغ إلى كيمبريدج قرر أن يذهب إلى «كلية ترينيتي» التي أسسها إسحاق نيوتن كمدرسة أولى للرياضيات. وقد ساعده الأساتذة القديرون في «ترينيتي» على أن يصبح متفوقاً (في مادة الرياضيات) بحيث أمضى سنتين في الكلية بدلاً من ثلاث سنوات.

صورة تخرجنا التي أعتز بها كثيراً هي الصورة التي يقف فيها بيلي ثاتشر بيني وبين تشو. لم أخيب ظنه، كما لم أخيب (زوجتي الصديقة). لقد خلّف تاتشر انطباعاً عميقاً في نفسي. كان حكيماً بعيد النظر يمنح الكثير من وقته لطلابه على حساب عمله. ذات يوم عندما كنت أشرب الشاي معه في غرفته،

أشار إلى عمال كانوا يحفرون في طريق ترمبينغتون، وقال: إنه في الساعات الثلاث الماضية أخذوا فرصتين من الراحة لشرب الشاي. كان الأمر مختلفاً قبل وأثناء الحرب. الآن تجدهم لا يرغبون للعمل بدأب، والبلاد لن تتقدم. ظننت أنه عجوز رجعي، ولكنه كان يدرّس مادة الاقتصاد، وقد استنتجت بعد سنوات أنه كان يعرف ما يحقق النمو. وفي مناسبة أخرى قال لي: (أنت صيني. وأنتم الصينيين لديكم حضارة عريقة تمتد آلاف السنين. وهذه مزية عظيمة). وقبل أن نغادر كيمبريدج في حزيران (يونيو) عام 1949 دعاني أنا وتشو إلى شرب قهوة الصباح للمرة الأخيرة. ربَت على يد تشو وقال وهو ينظر إلي: (إنه قليل الصبر جداً. لا تجعليه يستعجل الأمور هكذا) لقد فهم طباعي جيداً، لكنه كان يعرف أيضاً أن لدي هدفاً جدياً في الحياة وأنا مصمم على تحقيقه.

بعد التخرج، أخذنا إجازة عشر أيام. كي نتجول في إنكلترة واسكوتلاندة في حافلة. لم نكن قد انتهينا من الدراسة بعد. فمن أجل ممارس العمل في سنغافورة حتى شهادة جامعة كيمبريدج لا تكفي. كان لا بد أن نتخصص في المحاماة العامة أو المحاماة في المحاكم العليا. وهكذا انتسبنا إلى (ميدل تيمبل) الذي كان أحد (الغرف القانونية) التي تعلم وتهيئ الطلاب للانتساب إلى مهنة المحاماة. وعندما عدنا من جولتنا، حاولنا لهذا أن نعيش في لندن وأن نستأجر شقة غير بعيدة عن حجرتي الصغيرة في (شارع فيتز جونز). كنت أدرس أنا وتشو في مقر (الغرفة القانونية) ونحضّر معاً لامتحانات المحاماة النهائية.

أمضينا كذلك عدة عطلات هنا في منزل عتيق كانت تديره السيدة ميلور بمساعدة أولادها الثلاثة. كانت تطعمنا جيداً وتساعدنا. كنا وحدنا في المنزل إلا في فترة الصيف عندما كان يأتي بعض الزوار. كنا نتمشى ونستمتع بالطقس الماطر الدافئ برياحه الآتية من الجنوب الغربي للبلاد. وكانت تسليتنا الوحيدة الاستماع إلى إذاعة BBC المحلية من راديو من نوع (باي) اشتريته في كيمبريدج. كان الاستماع إلى الموسيقى يعطينا شعوراً بالبهجة والارتياح. وكنت أتلهى أحياناً بلعب الغولف فيما كانت تشو تلتقط الكرات. كما كانت تقطف حبات الفطر البري، التي كانت تطبخها لنا السيدة ميلور، لقد كان طعاماً شهياً.

كيمبريدج، 1948 يبدو وراءنا جسر التنهدات.

يوم التخرج، 21 حزيران 1949، مع تشو و و س ثاتشر، المراقب في فيتز ويليام، الذي جعل كل شيء ممكناً.

كانت الوجبات الأقل إثارة للشهية والتي كنا مرغمين على تناولها هي تلك التي كانت في (الميدل تمبل). حيث كان علينا أن نتناول (وجبات العشاء) في القاعة ثلاث مرات في الفصل وذلك للحصول على لقب محام، وهذا الجهد مطلوب من كل الطلاب؛ مما يعني قضاء سبع ساعات في رحلة بالقطار إلى محطة باد ينغتون. ولكنها كانت فرصة للقاء الأصدقاء من الملايو وسنغافورة، وكنا ننخرط في محادثات مع طلاب من لندن، ومن كل المقاطعات الاستعمارية، تتعلق بكفاحنا في المستقبل من أجل الحرية.

بعض أصدقائي من (كلية رافيلز) كانوا من النشطاء سياسياً. وكان من بينهم جوه كينغ سوي، مدرسي السابق لعلم الاقتصاد، والذي حصل على المرتبة الأولى في شهادة البكالوريوس من كلية LSE للاقتصاد، وتوه تشين شاي الذي كان يحضر للباكلوريوس في علم وظائف الأعضاء في جامعة لندن. وقد شكّلا مع عدد من الطلاب الآخرين ما سمّي (المنتدى المالاوي) والذي كان هدفه بناء وعي سياسي، وصحافة للمالايو المستقلة والتي تتضمن سنغافورة. وأعضاء هذا المنتدى ينتمون إلى عدة مجموعات عرقية ـ مالاويين وصينيين، وهنود وآسيويين ـ ولم يكن المنتدى ذا طابع إيديولوجي أو طابع يساري أو يميني. كان مناهضاً للاستعمار ولكنه ملتزم بتجنب العنف وذلك كي يميز نفسه عن (الحزب الشيوعي المالاوي) (MCP)، الذي استخدم السلاح ضد البريطانيين في الملايو في حزيران (يونيو) عام 1947، وكان أعضاء المنتدى يجتمعون أحياناً مع سياسيين بريطانيين ـ ووزراء صغار في الحكومة العمالية مثل ودرو ويات، أو مع أعضاء حزب المحافظين والأحرار في البرلمان ـ يستضافون للتحدث في المنتدى. وكانت الهند وباكستان قد حصلتا على استقلالهما في آب (أغسطس) عام 1947، وحصلت كل من سيلان وبورما على استقلالهما عام 1948. لقد انهار السد الامبريالي، والامبراطورية البريطانية كانت في تراجع. وكنا جميعاً على ثقة بأننا نستطيع أن نحصل على الاستقلال. كنا نشعر أن الشعب البريطاني وزعماءه قدتخلوا عن قمع الشعوب الخاضعة لهم.

بعض أعضاء المنتدى المالاوي في مطعم في «سوهو»، لندن، صيف، 1950
يقف من اليسار إلى اليمين أخي دينيس، فيليب هواليم الصغير، موريس بيكر، لي كيب لين. محمد سوبيي على يميني.
الجلوس من اليسار إلى اليمين: تشين تشي، ميكي جوه، تشو، كيني بيرن وزوجته إلين.

وبعد التحدث مطولاً كنا نسير ببطء من «قاعة مالايو» إلى «القوس الرخامي» عبر «شارع ادجوير» كانت الجعة سيئة وثقيلة. لم أستطع أن استسيغها حتى بعد سنوات. الجعة الجيدة غالية الثمن وكذلك الويسكي. كنا نتحدث عن أشياء كثيرة سنقوم بها بعد عودتنا. وفيما بعد اكتشفت أن قلة قليلة استطاعت أن تحقق أمانيها. إذ ستعترض كثير من الزوجات على أن يُقدم أزواجهن على مجابهة السلطة الاستعمارية البريطانية، ويعرضون بذلك أعمالهم للخطر، كما أن بعض هؤلاء الرجال قد فقدوا الرغبة في النضال بعد أن صُدموا بالحقيقة الباردة والخيارات الصعبة. فمن ناحية كان هناك ذوو الثقافة البريطانية ومن جهة ثانية كان هناك أيضاً الشيوعيون وجبهتهم المتحدة والمنظمة جيداً والتي تتمتع بتأييد جهات بارزة في المجتمع بدءاً من المدارس، وحتى النقابات والصحافة و(غرفة التجارة الصينية).

قررت قبل أن أغادر بريطانيا أن أتصل بليم هونغ بي الممثل غير الرسمي للحزب الشيوعي المالاوي (MCP) في لندن. وكان ليم قد حصل على منحة الملكة عام 1934، ولكنه فقد اهتمامه بالدراسة وانصرف إلى القضية الشيوعية. لم يستطع أبداً النجاح بامتحاناته في دراسة المحاماة ولم يحصل على شهادة جامعة كيمبريدج. بقي في لندن كي يصدر نشرة تطبع على الآلة الكاتبة، موالية للحزب الشيوعي المالاوي تدعى (مالايان مونيتور). كانت نشرة دعائية فجة. ولكنه شخص قوي الشخصية هتفت إليه لأنني أردت مقابلته ورتب لي موعداً خارج جريدة (ديلي ووركر) الناطقة باسم الحزب الشيوعي البريطاني، قرب شارع (فليت ستريت). وأحضرت معي تشو التي كانت تعرفه كصديق لأخيها الأكبر.

كان رجلاً غريباً. بدلاً من أن يأخذنا مباشرة إلى حيث يمكن أن نجلس ونتكلم، أخذنا إلى طريق دائري عبر أزقة ضيقة متخذاً منعطفات وأزقة منحنية لا ضرورة لها قبل أن نتوقف أخيراً أمام مطعم ومشرب شعبي جداً. كان يعيش في عالم تآمري خاص به. وبعد المجاملات الاجتماعية سألته مباشرة: لماذا ابتعد

وانفصل جميع الشيوعيين عن العمال الديمقراطيين الاجتماعيين في جبهتيهما المتحدتين، مستلهمين ما كانوا قد فعلوا في تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا؟. أنكر ذلك بشدة. وقال: إن الديمقراطيين الاجتماعيين في هذين البلدين، كانوا مقتنعين أن قضية الشيوعيين أعلى من مستواهم. كان من الواضح تماماً أنه غير مطلع على الأمور ويعيش في عالم حالم من صنعه، كان فيه ثورياً عظيماً. وعندما انفصلنا كنت مقتنعاً أن الحزب الشيوعي المالاوي لم يكن يعتبر لندن موقعاً مهماً أو أنه لا علم له بما كان يفعله ليم هونغ بي فعلاً بوصفه ممثلهم غير الرسمي.

في شباط (فبراير) من عام 1950 وبينما كنت لا أزال موجوداً في تينتاجل، تقدم أحد أصدقائي في جامعة كيمبريدج هو دافيد ويد يكومب للانتخابات كمرشح عن حزب العمال لشغل مقعد توتين الريفي في ديفون، والتي تبتعد مسافة ساعة ونصف الساعة بالقطار. كان بحاجة لسائق لشاحنته، ولمساعد عام، أمضيت أنا وتشو أسبوعين في مساعدته وصولاً إلى ليلة الانتخابات. كنا بين مناصري حزب العمال. كنت أنا مع سائق قطار، أمّا تشو فقد كانت مع زوجة شابة وأولادها. أمّا زوجها فقد كان بعيداً عنها يتدرب كي يصبح محامياً. تعلمت كيف أخوض الحملات الانتخابية، وألقيت عدة خطب في مدرسة صغيرة وفي قاعات الكنيسة. كان عدد المستمعين بضع عشرات، يصل في الحد الأقصى إلى مئة وخمسين شخصاً. اخترت موضوعاً أساسياً واحداً تمرنت عليه جيداً، وكنت أغير فيه بعض الشيء ما بين اجتماع وآخر. كان الموضوع أن بريطانيا كانت تحصل من العملة الصعبة (الدولارات) كل سنة من المالايو أكثر مما تحصل عليه من مساعدات مشروع ماريشال الذي ترعاه الولايات المتحدة، لأن المالايو تنتج نصف مطاط العالم وثلث إنتاجه من القصدير. فإذا ما خسرت بريطانيا المالايو فستفقد كثيراً من وارداتها من الغذاء والمواد الخام، فضلاً عن زيادة البطالة والارتفاع الشديد في تكاليف المعيشة.

في الاختيار ما بين العمال والمحافظين لم يكن الاختيار صعباً بالنسبة إلى أولئك القادمين من المستعمرات، كان لحزب العمال سياسة تجاه المستعمرات. وكان سجله منذ عام 1945 مؤثراً. فالاصلاحات التي طال انتظارها قد تم تنفيذها. أما بالنسبة للمحافظين، فإن المستعمرات كانت مجرد مناطق للاستثمارات ذات الربح العالي.

وقد قررت حكومة المحافظين أن تقمع الروح الوطنية الجديدة لدى شعوب المستعمرات فمن أجل أن تحافظ على الامبراطورية يجب أن تحرص على الفوضى. وإلا سيصبح الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) على درجة كافية من القوة كي يطرد البريطانيين من المالايو.

كان المستمعون في ديفون مندهشين لرؤية صيني يتحدث عن مرشح من حزب العمال البريطاني. كانت قضية خاسرة، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة التي يجعل فيها المرشحين الشباب يتميزون. وفي 23 شباط (فبراير) عام 1950 أعلنت نتائج الانتخابات في مدينة (تاون هول). وسقط ديفيد ديديكومب سقوطاً شنيعاً، ولكنه ألقى خطبة شجاعة، وكان خصمه المحافظ المنتصر رجلاً كريماً، وقد شجعه على أن يناضل مرة ثانية في دائرة انتخابية أخرى، كانت تجربة مفيدة في السياسة على مستوى الدوائر الانتخابية.

بعد مرور شهر أو اثنين تلقيت رسالة من مسؤول الشرطة في سنغافورة، إي. فولغير، الذي كان في إجازة. كان يعرف والديّ، وقد دعاني وتشو إلى بيته في بترلستون ديفون. وأمضينا ثلاثة أيام هناك. كان يريد أن يكوّن رأياً عني، وكنت مهتماً بإقامة علاقة ورؤية مع رئيس في الشرطة البريطانية الاستعمارية في فترة ما بعد الحرب، ورؤية الهيئة التي أمسى عليها. كان أسبوعاً مفيداً لعبنا لعبة الغولف، وكنت ما أزال سيئاً في تلك اللعبة. عرفت آنذاك أنني لفت انتباه (فرع سنغافورة الخاص) وسأكون على لائحة مراقبتهم. كنت قد ألقيت عدة خطب معادية للبريطانيين والاستعمار في (قاعة الملايو). كانوا يعرفون أن ليس

لي ارتباطات مع أحد. ورأيت أنه من الأفضل أن يعرفوا أنني أعمل على المكشوف وبشكل دستوري، وليس لي أية ارتباطات مع الشيوعيين أو تعاطف معهم. إذ إننا كنا سنعود قريباً إلى سنغافورة.

في أيار (مايو) 1950 نزلنا إلى لندن لاجتياز امتحانات الحقوق النهائية، وهناك صادفنا جمهور كرة القدم في عطلة الأسبوع تلك، وكانوا يقرعون أبواب الفندق حيث كنا نجلس ليلاً نهاراً، وحرمونا من الدراسة. فكان علينا أن ندفع ثمن وجودنا خارج لندن وعدم الإصغاء إلى المحاضرين الذين كانوا هم اللجنة الفاحصة في الموضوعات الأساسية. كانت الأسئلة مطروحة بطريقة جديدة. لم يحصل أحد على (الدرجة الأولى) حصلت على الدرجة الثانية وصُنّفت في الدرجة الثالثة. وحصلت تشو على الدرجة الثالثة، ولكن كل شيء كان على ما يرام. وفي 21 حزيران (يونيو) 1950، استدعينا، وقد اعترانا الوجل، إلى استلام شهادة المحاماة في غرفة الطعام في (تيمبل هول). هاهي الحياة تبدأ مرحلة جديدة.

كنت سعيداً بترقب العودة إلى الوطن، ولكنني كنت أنظر إلى السنوات الأربع انتي أمضيتها في لندن بعين الرضى وشيء من السرور. رأيت إنجلترة قد روّعتها الحرب. ولكن شعبها لم يهزم جراء ما لاقاه من خسائر ومعاناة، ولم يصب بالغطرسة والغرور بالنصر الذي حققه. فكل قنبلة سقطت على لندن قد نُظّف مكانها وأزيح الركام جانباً، وغالباً، ما كانت تنمو الزهور جانباً لتخفف من آلام الخرائب. كانت الحرب جزءاً من فخرهم الذي لم يطلقوا له العنان، ومن تهذيبهم.

كانت كياستهم وأدبهم في التعامل فيما بينهم ومع الأجانب لافتة للنظر. وما يؤثر في النفس ما يظهره ركاب السيارات من اعتبار: فأنت تلوح لأحدهم محيياً فتراه يرد عليك التحية بمثلها. لقد كان مجتمعاً بالغ التحضّر. ولقد شعرت

بالحنين إلى كيمبريدج حيث درست مع ذلك الجيل الاستثنائي الفريد من المقاتلين العائدين للعشرينيات من العمر، وبعضهم في الثلاثينيات، متزوجون وعندهم أولاد. كانوا جديين عرفوا الموت والدمار. بعضهم عبر الجحيم. فأحد الطلاب في فيتز وليام أصيب بحروق شديدة إثر تحطم طائرته. كان النظر إليه يبعث على الأسى رغم عمليات التجميل المتكررة التي خضع لها. ولكنه استطاع التغلب على عجزه. كان يعلم أن وجهه المشوه يفزع الآخرين الذين يقابلونه في المرات الأولى، ومع ذلك فهو يعمل بشكل طبيعي وبثقة وبدون شفقة على الذات. لم ينحنِ واستطاع أن يحقق أفضل ما بوسعه في حياته.

لقد كان أولئك الذين خدموا في الجيش من طلاب كيمبريدج، وتركت الحرب آثارها المشوهة على أجسامهم، هم من صنعوا كيمبريدج ما بعد الحرب مكاناً للتعلم ولمواكبة آثار ما بعد الحرب. كنت محظوظاً بأن أعايش ذلك الجيل من البريطانيين.

أما الذين عاشوا منهم في رغد العيش والتسلية، والذين تسربوا من الخدمة الوطنية زمن السلم، أو الذين حصلوا على استثناءات من الخدمة فقد كانوا قلة. إذ كان هناك من أساء إلي بعض الشيء، ربما لأنني طالب آسيوي، أو كانت بعض السيدات اللواتي يؤجرن الغرف والبيوت سيئات في التعامل، كان هناك سيدات رائعات من أمثال السيدة ميلور في (تينتاغيل) والسيدة جاكسون التي كانت تعتني (بالمعهد الصيني) في لندن، والتي ما زلت أذكرها كثيراً خلال سنوات معيشتي في بريطانيا. لقد بُني المعهد الصيني في ساحة غوردون من قِبل الحكومة البريطانية، وبأموال كان على الصينيين أن يدفعوها كتعويض عن الضرر الذي أصاب حياة البريطانيين وممتلكاتهم في عصيان عام 1900. كان مفتوحاً لجميع الطلاب الصينيين من كافة الأعراق، ولقد وجدته مكاناً مريحاً وملاذاً رائعاً للأمن والهدوء قرب وسط لندن. كانت السيدة جاكسون ودودة مع جميع الطلاب، ولكنها منذ البداية كانت ودودة وداً خاصاً معي. وخلال أيام العطل حيث كان

عنواني يتغير باستمرار، أصبح مقر إقامتها مكاناً نضع فيه حقائبنا وكتبنا. كنت أنا وتشو نتردد على ذلك العنوان: 16 ساحة غوردون، لأنه لم يكن لدينا منزل في لندن، وكنا نأوي إلى «معهد الصين» من أجل الاغتسال والراحة بدون ثمن. وكانت السيدة جاكسون تزودنا بالشاي مقابل شلن واحد.

هل هي أمور مؤسفة؟ لا يستطيع أحد غير الطالب الأجنبي في بريطانيا في تلك السنوات الصعبة يمكن أن يتخيل كم كانت الحياة صعبة وغير مريحة بالنسبة إلينا للإقامة في لندن. كانت صاحبة المنزل تقدم لنا الإفطار فقط، وبعد ذلك كنت أخرج أنا وتشو من الغرفة كي نسمح لها بتنظيفها. وبعد ذلك كنا نتوجه إلى مكتبة عامة للدراسة، ونتناول الغداء والعشاء في مطعم ما. كان وجود مكان نظيف وهادئ للراحة والاستحمام ترفاً مستحيلاً ولا سيما إذا كان مجانياً.

عندما كنت في لندن عام 1956 من أجل المؤتمر الدستوري حول مستقبل سنغافورة. عدت إلى ساحة غوردون لزيارة السيدة جاكسون. كانت سعيدة بلقائي كما كنت سعيداً بلقائها. ولكن ارتباطي (بمعهد الصين) قد أوجد في تلك الأثناء حركة ارتجاعية سياسية غير متوقعة. واكتشفت بعد سنوات تقارير قديمة ضمن مصنفات عن (فرع سنغافورة الخاص) تدعي أنني وتشو كنا نتردد على هذا الفرع كي نختلط مع المالاويين الشيوعيين من الصينيين، حيث كان ماوتسي تونغ في تلك الفترة يقود النصر في الحرب الأهلية وأعلن في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) 1949 الجمهورية الشعبية. جاء في أحد التقارير أن تشو أكثر راديكالية وتطرفاً. اهتزت ثقتي بتقارير (الفرع الخاص) بشدة.

خلال سنواتي الدراسية كنت أتطلع إلى إقامة علاقات مع الزعماء السياسيين في «حزب العمال» ولا سيما أولئك الذين يستطيعون أن يساعدوا أمثالي ممن يسعون إلى نهاية مبكرة للحكم الاستعماري وملايو مستقلة تشمل سنغافورة. كان حزب العمال أكثر تعاطفاً مع استقلال المستعمرات من «حزب المحافظين» الذي ما يزال يتحدث عن «الملك والامبراطورية» في الاجتماعات التي كنت أحضرها.

كما أردت تطوير علاقاتي مع الطلاب البريطانيين الذين يمكن أن يلعبوا دوراً في المستقبل في الأحزاب السياسية الرئيسة، شبكة تكون مفيدة عندما أشتبك مع السلطات الاستعمارية في سنغافورة ومالايو. لذا درست نظامهم السياسي باهتمام كبير. ويبدو أن نظامهم البرلماني الديمقراطي يعمل عملاً جيداً. كان ثمة ثورة هائلة ـ اقتصادية، واجتماعية، وسياسية ـ تجري بهدوء أمام ناظري. فالناخبون أطاحوا بونستون تشرشل وبالمحافظين في أيار (مايو) 1945، على الرغم من أن تشرشل كسب الحرب لبلاده. فنصّبوا كليمينت أتلي وحزب العمال في السلطة على أمل معالجة التبدلات العميقة في التاريخ البريطاني. وكانت حكومة أتلي تنفذ برامج خاصة بخلق دولة العدالة التي تعتني بطبقات البريطانيين كافة من المهد إلى اللحد. ولم يكن هناك أي احتجاج عنيف من قبل خصومهم، ولم تجرِ الدماء في الشوارع. كانت تصدر فقط كلمات انتقاد عن المحافظين في البرلمان وفي الدوائر الانتخابية تحثّ على الاعتدال والتعقل في مسألة تحقيق ما يجري. وقد كنت شديد التأثر.

بعد فترة قصيرة من صدور قانون خدمة الصحة الوطنية عام 1948، ذهبت للحصول على نظارات طبية لدى طبيب عيون في شارع ريجنت في كيمبريدج. كنت أتوقع أن أدفع ثمنها ما بين خمس وست جنيهات وعند الحساب قال لي الطبيب بفخر بأنني لن أدفع أي شيء لقاء النظارة وأصرّ على أن أوقع ورقة رسمية.

كنت سعيداً وظننت أن المجتمع المتمدن يكون هكذا. وبعد بضعة شهور، جرى معي الشيء ذاته عند طبيب الأسنان. إذ كان علي أن أوقع ورقة فحسب طبيب الكلية لم يطلب مني حتى توقيع ورقة لأنني مسجل لديه من قبل في سجل المرضى. ومرة ثانية أصبت بالذهول. ولكن الصحف ذكرت أن كثيراً من الفرنسيين وأبناء القارة الآخرين يأتون إلى بريطانيا من أجل المعالجة السنيّة المجانية، اعتقدت أن هذا سيمضي بالأمور بعيداً جداً. لكن الفرنسيين أضحوا أكثر فقراً. كنت معجباً بهذا التحول الذي يقوم به البريطانيون.

وأكثر شيء أذهلني هو عدالة النظام. فالحكومة كانت تعمل على خلق مجتمع يجعل كل فرد ـ غنياً كان أم فقيراً، رفيعاً أم بسيطاً أم من الطبقة المتوسطة ـ يعيش في مستوى لائق من الحياة. وطبعاً كان هناك بعض القصور في تطبيق ذلك. ولكن استمر نظام في توزيع الطعام والملابس والذي كان معمولاً به أثناء الحرب إلى أن ألغاه المحافظون في أواسط الخمسينيات. ولكنه ما يزال مطبقاً على مواد غذائية مثل السكر والشاي، والحلوى والشوكولا، والزبدة واللحوم ولحم الخنزير والدقيق، والبيض، وكانت ملابس العمل متوفرة بأسعار معقولة. ولكنها تحتاج إلى قسائم

كنت يانعاً ومثالياً جداً كي أتأكد أن تكاليف الحكومة ستكون باهظة، والأسوأ من ذلك أنه في ظل نظام مساواة كهذا سيكون كل فرد مهتماً بما يمكن أن يحصل عليه من القطاع المجاني المشترك بدلاً من أن يسعى نحو الأفضل بنفسه، وهذا ما يخلق القوة الدافعة لتقدم التطور البشري. تلك النظرة الواقعية كانت تنتظر فترة الستينيات عندما أصبحت مسؤولاً عن حكومة سنغافورة الصغيرة الأكثر فقراً من بريطانيا، وكانت تجابهني الحاجة إلى توليد عائدات وخلق ثروات قبل أن أفكر، أو حتى أتحدث عن إعادة توزيعها

في غضون ذلك علمت من الرسائل وبعض المقتطفات من الصحافة البريطانية عن أحداث في الوطن. فقد أثيرت اضطرابات عمالية وحصلت توترات اجتماعية بسبب الحزب الشيوعي المالاوي MCP وحدثت مظاهرات واضطرابات سياسية، وفي حزيران (يونيو) 1948 بدأ الشيوعيون إطلاق النار وقتل زارعي المطاط البريطانيين داخل البلاد. وعاد رجال العصابات إلى الأدغال، وأعلنت الحكومة المستعمرة حالة الطوارئ.

وفي المعترك الدستوري المفتوح، من جهة أخرى، لم تكن ثمة قوة سياسية وراء الزعماء الضعفاء ذوي الثقافة البريطانية الذين كانوا يتوقون إلى إرضاء الحكام البريطانيين. أحسست بقوة لأنني عندما يعود جيلي ينبغي أن نملأ الساحة.

وانضممت إلى (نادي العمال) في جامعة كيمبريدج ورحت أحضر اجتماعاتهم بانتظام، ولا سيما حينما كان يحضر وزراء عماليون يوم الجمعة مساء للتحدث عن البرامج التي يقومون بدعمها وتمريرها من خلال البرلمان.

كان وقت تبدل وإثارة عظيمة. إنها ديمقراطية اشتراكية فعلية، كما كانت حضارية جداً. لقد هدد الأطباء البريطانيون بالإضراب ذات مرة. ولكن ضمائرهم وتقاليدهم منعتهم من تحقيق ذلك، وكذلك عادات النظام الدستوري. واستطاع أنورين بيفان، وزير الصحة، أن يمرر مشروع قانون (خدمة الصحة العامة) بعد أن وصف المحافظين بأنهم (أقل من حشرات طفيلية). وكان حزب العمال يبني أيضاً بيوتاً جماعية ليؤجرها بأثمان زهيدة. ووسعوا نطاق المشروعات الخيرية ليتأكدوا أن (شبكة الأمان) باتت تشمل جميع العائلات التي لا تزال غير قادرة على تلبية احتياجاتها الضرورية. (هذه الحاجات الضرورية البسيطة تبدو لي كمالية بالمقارنة مع ما كنت أتذكره من أوضاع في سنغافورة حتى قبل الغزو الياباني). كان درساً جديراً بالاهتمام في كيفية تحقيق العدالة الاجتماعية.

فأبناء جيلي من طلاب سنغافورة والملايو في بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية كانوا معجبين أشد الإعجاب بعدالة وعقلانية برامج الحكومة العمالية. كنا متحمسين للنظام البريطاني الناضج الذي في ظله سمح التقليد الدستوري والاعتدال بتحولات أساسية في السلطة والثروة تأخذ مجراها بسلام. كنا نقارن بين ما نراه في بريطانيا وما يجري في سنغافورة والمالايو حيث العدد الكبير من غير المتعلمين، وحيث تتجاهل الصحافة الضعيفة جميع القضايا الأساسية وتكتفي بذكر أخبار وتحركات المسؤولين المهمين ومن يلوذ بهم. كان الوضع يبدو متخلفاً وغير واعد.

أبحرت أنا وتشو عائدين إلى الوطن، على متن الباخرة الهولندية وليم ريوس، وفي ذهننا مجابهة هذا التخلف. كانت أفضل سفينة تمخر عباب البحر ما بين ميناء سلوثامبتون وسنغافورة ـ جديدة ومكيفة وتقدم طعاماً إندونيسية وهولندياً

فاخرين، فضلاً عن الخدمة الممتازة التي يوفرها مئات العاملين الممتازين (ادنجو نغوز) الذين يرتدون زيّاً بحرياً. كانت رحلة الوداع. سافرنا بالدرجة الأولى في كابينات متحاذية. وأمضينا وقتاً رائعاً ـ لولا أنني أصبت بدوار البحر عند خليج بيسكاي، ومرة أخرى في البحر العربي، واضطررت لاتباع ريجيم قاس من التوست المجفف ولحم البقر المقدد، وما عدا ذلك فقد كانت رحلة لا تنسى.

أصبحت الآن على دراية عالية بشؤون السياسة ومعاداة الاستعمار، وكنت أتحاشى ركاب الدرجة الأولى من الأندونيسيين واليورو آسيويين الذين كانوا يتوددون للقبطان الهولندي وضباطه. ومن جهة أخرى كنا سعيدين بصحبة السيد محمد رازيف وزوجته، وهما إندونيسيةن في أواسط العمر كانا ينأيان بنفسيهما عن القبطان. ومن خلال تعرفنا عليهما عرفت أن رازيف وطني من سومطرة ـ أصبح فيما بعد سفيراً لبلاده في كولالامبور.

أحيا إيماني بكبرياء شعب خاضع للاستعمار، وبتّ أكن له احتراماً شديداً. ولكنني كنت أحتاج إلى بعض الوقت كي ما أتأكد أن أي بلد يحتاج إلى ما هو أكثر من وجود أناس فخورين وذوي قدرة في القمة كي تتغير الأمور. الشعب كله يجب أن يتحلى باحترام الذات والرغبة في النضال لتحقيق أمة قائمة بذاتها. ومهمة الزعماء أن يوفروا للمواطنين إطاراً واسعاً يتعلمون ضمنه، ويعملون بدأب، ويكونوا منتجين، وأن يكافأوا بحسب عملهم، وليس هذا بالشيء الذي يسهل تحقيقه.

وصلنا إلى سنغافورة في الأول من شهر آب (أغسطس) إنه لشعور طيب أن يعود المرء إلى الوطن. كنت أعرف أنني أدخل مرحلة مختلفة من حياتي. وسرعان ما تذكرت مخاطرها. على الرغم من أننا سافرنا بالدرجة الأولى فإن ضابط الهجرة، السيد فوكس، الذي كان يسير على ظهر السفينة بلباسه الرسمي، كان متأكداً أنني أعرف مكاني. لقد جعلني وجعل تشو ننتظر حتى آخر راكب. ثم نظر في جواز سفر تشو وجوازي وقال بغموض: (أفترض أنني سأسمع عنك أكثر يا سيد لي). حدقت في وجهه وتجاهلت ملاحظته. أراد أن يخيفني، ولكنني ما كنت لأخاف منه.

فيما بعد اكتشفت أن من بين النقاط السوداء ضدي، التحاقي المشبوه باحتفال الشبيبة العالمي في بودابست في شهر آب (أغسطس) من عام 1949. فهناك استخدم الاتحاد السوفييتي الهنغاريين كمضيفين لهذا الاحتفال الشيوعي المنظم وقد دعا (اتحاد الطلاب العالمي) في لندن مجموعات في بريطانيا للمشاركة في الاحتفال. وقد وافق بعض الملاويين والسنغفوريين على المشاركة لأنها كانت فرصة الحصول على عطلة رخيصة مع تقديم كثير من الخدمات المجانية.

واشترك كينغ سوي، وموريس بيكر، وشقيقي دينيس وآخرون. وقد نظم بعض الملاويين هناك تظاهرة تحت شعار (الملايو تقاتل من أجل الحرية). وعلمت المخابرات البريطانية بهذا. ولما كان بعضهم ممن قد يسببون المتاعب عندما يعودون إلى وطنهم فقد أرسلت المخابرات البريطانية إلى (فرع سنغافورة الخاص) لائحة بأسماء هؤلاء الذين شاركوا. ومن بينهم (ك.ي.لي). وقد حقق الفرع الخاص مع والديّ ولكنهما لم يستطيعا توضيح الأمر لأنهما لم يكونا يعرفان أي شيء. وبالنتيجة فإن السلطات لم تعرف بأن المشتبه به هو أخي دينيس، وليس أنا.

ولكن كانت هناك تقارير أخرى في ملفاتهم تخصني. مما أهلّني للتميّز فيجعلني آخر راكب يغادر السفينة (ويليم رويز). عندما دوّنت تاريخي الشفهي عام 1981، أطلعني باحث على وثائق حول اجتماع القائم في الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) عام 1950 في دار الحكومة. ففي ذلك الاجتماع، أوصى نيغل موريس مدير الفرع الخاص باعتقالنا: أنا وتشو فورَ عودتنا من إنكلترة. وقد رفض هذه التوصية رئيس الشرطة آر. إي. فولفر الذي كان قد دعانا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه في ديفون. وقد جاء في وقائع الوثائق المسجلة أن الحاكم وكبير الضباط والسكرتير الاستعماري دعموا موقف فولفر محتجين بأننا كلينا منحدران من عائلتين محترمتين. لذلك فإن ردة فعل الرأي العام على

اعتقالنا ستكون سيئة. وقالوا: الأجدى أن يستميلونا وأن يكسبوا ودّنا. وقد اقترح اسم المفوض العام لجنوب شرق آسيا مالكولم ماكدونالد ليكون المضيف المناسب، بما أنه معتاد على دعوة الطلاب إلى موائد العشاء. وكذلك كان، فقد دعاني وتشو بعد أشهر قليلة من عودتنا.

وبينما استبقاني السيد فوكس منتظراً في قاعة الدرجة الأولى على متن ويليم رويز، صعدت إلى ظهر السفينة كي ألوح بيديّ لأسرتي: أبي وأمي وفريد ومونيكا وسوان الذين اصطفوا على رصيف الميناء مع بعض الأصدقاء ومنهم: هون سوي سن. كذلك كانت عائلة تشو بانتظارها. وما أن نزلنا من السفينة حتى افترقنا، هي عادت مع والديها إلى باسير بانجنغ، وأنا ذهبت إلى شارع أوكسلي. افترقنا كأصدقاء كي لا نفشي سر زواجنا في بريطانيا.

6. العمل والزواج والسياسة

أبرزت الصحافة نبأ عودتنا، وأشارت إشارة واضحة إلى النجاح الأكاديمي الذي تم في كيمبريدج. وبالطبع كان لتشو نصيباً في ذلك. وقد ساعدت هذه التنويهات الإعلامية على إيجاد أول عمل لي. فخلال زيارتي إلى المحكمة العليا قابلت المحامي ت. دبليو أونغ من مواليد ستريتسي. وسألني إن كنت مهتماً بإمضاء الفترة التدريبية في شركته ـ ليوك وأونغ؟ ووافقت فوراً، وتمت ترتيبات مقابلتي لشريكه جون لايوك في اليوم التالي.

لايوك كان من لانكشاير، تقريباً في الستين من عمره، وكان قد تأهل للعمل كمحكم في إنجلترة. مارس عمله في سنغافورة منذ بداية الثلاثينيات، وتزوج من امرأة صينية. ولما لم يرزقا بذرية، فقد قاما بتبني عدد من الأطفال الصينيين. كان يتحلى بعقل راجح، وطباع شرسة. فعندما يغضب يحمر وجهه وبالكاد يستطيع السيطرة على ارتعاش جسده. كان مليئاً بالطاقة، يشرب بنهمٍ. ويتعرق طوال الوقت ويمسح عرقه بمنديل كبير. عرض عليَّ أن أكون تلميذه (متمرنه) الشخصي. مما كان يعني أنه علي الجلوس في مكتبه الذي يتم تبريده بواسطة مكيفين من ماركة فيلكو واللذين كانا يحدثان جلبة كبيرة. إلا أنهما من ناحية أخرى كانا شديدي الفاعلية. عرض علي أن يدفع لي خمسمئة دولار في الشهر إلى أن يحين موعد مثولي أمام هيئة المحامين، أي بعد عام كامل لأني كنت قد اخترت ألا أقوم بذلك أمام الهيئة في إنجلترا.

بدأت بالعمل على الفور. كان لدي ملابسي الاستوائية المكونة من بنطال كتاني ومعطف مقلم بقلم خفيف، وابتعت قميصاً قنطنياً واسعاً يمكنني من التنفس بسهولة. ولكن هذا لم يفدني، إذ كنت أتعرق تعرقاً غزيراً بسبب عدم تعودي على الحرارة والرطوبة العاليتين. كنت في كل مرة أذهب خارجاً إلى المحكمة أعود

وقد تبللت تماماً بالعرق. وكانت كارثة أن تكون مبللاً في غرفة لايكوك المبردة وهذا ما يسبب إصابة بالسعال والزكام. ولكن سرعان ما تعلمت أنه ينبغي علي عند العودة إلى المكتب، قبل كل شيء، أن أقوم بغسل وجهي بماء بارد، وأتريث قليلاً، ومن ثم أستبدل ملابسي بأخرى جافة.

بما أني قد وجدت العمل، بقي علي أن أذهب لرؤية والد تشو، (كوا سيوتي) كان طويل القامة ونشيطاً. وعصامياً، علم نفسه المحاسبة والأعمال المصرفية من خلال دورات تمت بالمراسلة إلى أن ترقى إلى مركزه الحالي في المؤسسة المصرفيّة الصينية لما وراء البحار، وكل ذلك كان بفضل جهوده الشخصية، حيث لم يكن مسؤولاً عن عائلة تدفعه إلى الأمام ولا يملك مالاً يشتري به الترقية. طلبت منه يد ابنته، وسألته عن الموعد الذي يمكن أن نعقد قراننا فيه، بُهت الرجل وصمت. فقد كان يتوقع زيارة رسمية تقليدية تقوم بها عائلتي لإثارة هذا الموضوع معه، ولكن أن يقوم هذا الفتى الطائش بطلب تحديد الموعد بنفسه فهذا قلب للأمور.

رغم ذلك كان واضحاً أن القبول قد تمّ. ومع أنه لم يُظهر لي امتعاضاً كبيراً. إلا أن ذلك تبدأ بوضوحٍ فيما بعد أمام تشو. اتفقنا على الخطوبة التي سيتبعها الزواج في نهاية شهر أيلول (سبتمبر) وعند معرفة لايوك بهذه الأنباء التي نقلتها الصحف، اقترح أن تعمل تشو لديه كتلميذة متمرنة وأن يدفع لها خمس مئة دولار شهرياً. أعلمت تشو بذلك وقبلت العرض على الفور كان ذلك مريحاً، إذ كنا نستطيع الذهاب إلى العمل معاً، ورؤية بعضنا بعضاً كل يوم.

وفي الثلاثين من أيلول (سبتمبر) 1950، وبعد زواجنا السري الذي دام بحدود ثلاث سنوات بدأنا احتفالاً مع توقيع عقد الزواج، الذي تمّ في مبنى المحكمة العليا. وقد كان موثق العقود السيد جروسيه الذي تأخر 15 دقيقة مما استدعى غضبي وطلبت منه عند ظهوره الانصراف. تم تدبير موعد جديد فيما كان الجميع ينتظر. وبعد ظهر ذلك اليوم أقامت لنا عائلتانا حفلاً ضم الأقارب

عرسنا في فندق رافيلز، في 30 أيلول 1950، البطاقة المكتوب عليها «ستيكفاس» في الزاوية اليسرى وضعها يونغ نيوك لين ليذكرنا بصناعة المسكة أثناء الاحتلال الياباني.

والأصدقاء في فندق (رافلز) واقترح توم سيلوك أستاذ الاقتصاد في جامعة سنغافورة، وكان قد درّسنا في (كلية رافيلز)، أن نشرب نخب العروس. ورغم أنه كان بعيداً عن خفة الظل وحضور البديهة إلا أن كلمته جعلت تشو تفخر بنفسها. انتقلت تشو بعد ذلك إلى 38 شارع أوكسلي، وكانت والدتي قد ابتاعت لنا بعض المفروشات الجديدة وبدأنا حياتنا الزوجية العلنية، لم تتكيف تشو بسهولة مع وجودها الآن مع عائلة لي، والتي كانت تتألف ليس فقط من جدتي وأبي وأمي وأختي وثلاثة أخوة، بل كان هناك أيضاً بعض الأقارب القادمين من إندونيسية والذين يعيشون معنا ويساعدون والدتي في دخلها.

انضممت إلى نادي (ايلند كلوب)، السنغافوري لأتابع رياضة الغولف التي كنت قد تعلمتها في تناغل. كنت مواظباً على التمرين واللعب إلى درجة أنني كنت أقود سيارتي ومعي تشو إلى النادي على الرغم من تساقط الأمطار الغزيرة. وذات مرة وعند بلوغنا شارع تومسون انزلقت سيارتي (الستوديباكر) ودارت حول نفسها، وتوقفت عند منحدر عشبي ناعم. كنت مصعوقاً من هذا الحادث وكذلك كانت تشو ولكننا كنا محظوظين، إذ لم نصب بأي جرح، ولو انزلقت السيارة أكثر مع خروجها عن الطريق لكنا صدمنا أنبوب ماء كبير عوضاً عن العشب الطري لكانت بلا شك النهاية.

لم أكن مرتاحاً. فقراءة الوضع السياسي في سنغافورة كان يثير الخنق، بل الغضب، من السلطة التي كانت في يد الحاكم، وسكرتيره الاستعماري والنائب العام. كانوا كلهم يعيشون في مجمع بيت الحكومة والذي كان يمثل مركز السلطة. عاش الحاكم في المبنى الأكبر. بيت الحكومة. وسكن السكرتير الاستعماري في المبنى الأصغر، وهو مبنى مؤلف من طابق واحد، وسكن النائب العام في المبنى الثالث. أما أعضاء السكرتاريا والمعاونون فقد عاشوا في المبنيين الباقيين. وخدم المقسم الهاتفي لهذه المباني الخمسة على مدار الأربع وعشرين ساعة.

هنا كان قلب الحكومة الحقيقي. كان هناك مجلس تشريعي. ولكن ستة من أصل خمسة والعشرين عضواً كانوا منتخبين، أما الباقون فقد عينهم البريطانيون والمسؤولون الذين كان على رأسهم السكرتير الاستعماري. وفي عام 1951 ازداد عدد الأعضاء المنتخبين إلى تسعة، ولكن لم يملكوا سلطة تستطيع تحديد السياسات، كما أنه لم يعرف عنهم أنهم وقفوا إلى جانب الشعب، الذي كانت مشاركته بالانتخابات التشريعية والمحلية سلبية إلى حد يبعث على الأسى.

رئيسي في العمل جون لايكوك كان روح وديناموالحزب السياسي الرئيسي: (الحزب التقدمي) ولكن رئيسه المسمى كان سي.سي تان، وهو محام ذو شخصية ومظهر لا يسران. قيادة الحزب كانت تتكون رئيسياً من أولئك الطلاب الذين درسوا في إنجلترا القانون أو الطب في الثلاثينيات، وكانوا يهابون ويخشعون أمام المثل البريطانية الطاغية. مثلهم كمثل جدي الذي كان يرى أن كل شيء بريطاني يفوق في روعته الكمال. لم يثقوا بأنفسهم وبالتالي لم يثقوا بأبناء جلدتهم.

وصف باتريك دونافان مراسل الصحيفة الأسبوعية (الأوبزرفر) في جنوب شرق آسيا الجيل الأقدم من الطلاب الآسيويين العائدين من بريطانيا بأنهم لا يستطيعون عاطفياً أو نفسياً النضال من أجل الحرية. اعتُبروا أنهم غير قادرين على تولي زمام الأمور تولياً فورياً كما أنه لا يمكنهم إدارة دولة مستقلة وهذا ـ برأيهم ـ يتطلب سنوات طويلة من الخبرة.

ما رأيت، كان مجموعة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، ودع عنك وقوفها أمام البريطانيين. وهذا ما انطبق على الهنود القادمين من الهند والذين كانوا يعتبرون (قادة سنغافورة) لأنهم كانوا يحملون جوازات سفر بريطانية، ولأن ثورة الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) أحدثت فراغاً سياسياً. فالقوة المحلية الفاعلة كانت (اتحاد العاملين والموظفين) بأمينها العام ليم يوهوك.

خطب هؤلاء الساسة كانت تتسم بالبلادة، التي لا تتحدى قط السيادة البريطانية. كان إحساسهم بالوجود والتفوق يتم عندما يقوم أحدهم بمجرد انتقال مسؤول استعماري. وصديقي كيني يابرون وصفهم بأنهم من (سلالة

العبودية والرق). كيني كان قد عاد إلى الوطن معي على متن (وليم رويس) وعمل في سكرتاريا الدولة، وكنا ننفس عن آلامنا وغضبنا عندما كنت أزوره في مكتبه الحكومي بعد العشاء.

كيني كان طويل القامة، يتحدث ببطء، ويمشي ببطء، أوروآسيوي يحمل ذاكرة تنوء بتطاول ووقاحة بعض زملائه البريطانيين العاملين في الخدمة العامة.

كنت مصمماً على أن أقوم بشيء تجاه هذا الوضع المزري، وكنت أتطلع لعودة أصدقائي الآخرين من إنجلترا، ولاسيما كينغ سو وتشن تشيو، كنت أريد أن أطلع على تقييمهم للأحوال، ومقارنة وجهات نظرنا، لنحدد اتجاه طريق العمل. وأردت أيضاً أن أقيم اتصالاً مع جون ايبر و ليم كين تشو، والأخير كان يقود الجناح اليساري في حزب (الاتحاد الديمقراطي المالاوي) (MDU) قبل قرار منع الحزب من مزاولة نشاطه بموجب قانون الطوارئ الذي أُعلن في حزيران (يونيو) 1948. الذي حدث أنه في أحد أيام تشرين الثاني (نوفمبر) 1950. وبدون إعلان مسبق اتصل بي جون ايبر إلى سكني في (أوكسلي رود). سألته حينذاك عمَّ يمكننا فعله تجاه السياسيين الدستوريين المفلسين؟. ولِمَ لا ننشئ حزباً ونفعل شيئاً حقيقياً ووطيداً، ونوقف ضرب الطواحين هذا، ونتحدى سلطة الحكومة الاستعمارية؟ لم يعلق بشيء. قال: (حسناً، هنالك الآن حالة طوارئ. ويجب أن تكون في غاية الحذر) لا بد أنه كان قد سمع من ليم هونغ بي عن لقائي معه في لندن واعتبر أني قد أصبحت نصيراً محتملاً.

في كانون الثاني (يناير) 1951. أعلنت الصحف عن اعتقال مجموعة من الشيوعيين من ذوي الخلفية التعليمية البريطانية. وبين المعتقلين كان جون ايبر، وهو نائب حزب الاتحاد الديمقراطي المالاوي، وسي. في ديفان ناير سكرتير اتحاد المعلمين السنغافوريين، وعبد الصمد بن إسماعيل المحرر الرئيسي في الصحيفة المالاوية (أوتوسان ميلاوي). كانت هذه هي المرة الأولى التي تقوم فيها السلطات بالاعتقال استناداً إلى أحكام قانون الطوارئ، لتشمل مجموعة ذات

خلفية ثقافية إنجليزية. كنت آمل أن أثير اهتمام جون ايبر وأصدقائه لتشكيل حزب سياسي دستوري ولكنه كان قد اعتبرني عضواً محتملاً في حزبه وقضيته، ولو تأخر القبض على هذه المجموعة ستة أشهر أخرى أو سنة لكانت طالتني حملة التطهير هذه والتي قامت بها المجموعة الخاصة. تحول الأحداث هذا أعطاني وقتاً لتتبلور ردود أفعالي، وسرعان ما فهمت خطورة هذا التطور.

كان الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) يشن حرب عصابات ضد البريطانيين في أدغال الملايو، يطلق النار على المزارعين البيض، وعلى السكان المحليين الذين يساندون المستعمرين. كانوا يربحون الكثير من المناصرين في أوساط الأكثرية الصينية المتعلمة في سنغافورة، والذين تأثروا بالتقارير التي تحدثت عن تقدم الصين الشيوعية، والنجاحات التي أحرزها (جيش التحرير الشعبي) ضد الجيش الأمريكي في كوريا. هذه النجاحات أعطت دفعاً قوياً لمركز الصين، وبالتالي أدى إلى تحول المتعلمين الصينيين باتجاه تبني القضية الشيوعية.

ومع التطورات الأخيرة أصبح ظاهراً أن الحزب الشيوعي المالاوي قد كسب أنصاراً داخل الطبقة المثقفة إنجليزياً. ورغم المعاملة المتميزة التي كانوا يلقونها، وهيمنتهم على الوظائف والمهن في الدولة، نجد أن بعض أكثرهم مثالية قد استسلم إلى الجاذبية الشيوعية التي كانت تدعو الشعب لمقاتلة الاستعماريين. هنا إن لم نقم بشيء وإن فشلنا في تجنيدهم في حركة سياسية مؤثرة فإن الحزب الشيوعي سيكون الرابح الأكبر.

تابعت عملي في المحاماة ولحقت لايكوك إلى قاعات المحاكم في قضايا شانسري. كان يبدو عليه الوقار عند وقوفه أمامها، ولكن في الحالات الأخرى كان أقرب ما يكون إلى شخص بدائي فطري. كان يأخذني معه إلى الغداء والعشاء، يشرب بغزارة (البيرة السوداء والبيرة العادية) كي يغسل بهما طبق المحار الذي تناوله في مطعم فندق مطار كالانغ، أو شرائح اللحم السمكية في مقهى ستانفورد أو (ادلفي جريل). كان أحياناً يسكر إلى الحد الذي يعيقه عن

ممارسة عمله بفعالية بعد الظهر. وفي الليل كان يجرع الويسكي بإسراف. وكنت آكل أكثر مما هو مناسب لي، وأشرب أكثر مما أريد. كان لايكوك يعتبرني مرشحاً جيداً للانضمام إلى (حزبه التقدمي) وقد سألني في شباط (فبراير) 1951 أن أكون مندوبه في مجلس الانتخابات التشريعية، وافقت لأن هذا سيعطيني فكرة أوضح عن الظروف والممارسات في سنغافورة.

يوم الترشيح كان في الثامن من آذار (مارس)، ولكن الشيء الغريب أن الشارع لم تبد عليه الإثارة. فالمجلس التشريعي السابق الذي تمت انتخاباته عام 1948 كان المصوتون فيه 23000 من أصل 200000 ممن يحق لهم التصويت. وكان نصف المصوتين تقريباً من الهنود، رغم أن الجالية الهندية لا تتجاوز الستة بالمئة من عدد السكان. وفي انتخابات هذا العام 1951 لم يكن غريباً أيضاً أن يكون عدد الهنود المتقدمين إلى الانتخابات غير متناسب مع وزن الجالية الفعلي. كان عددهم 9 من أصل 22 مع وجود متقدم من سيلان يتنافسون على تسع مقاعد. ومن ضمن هؤلاء الهنود تقدمت امرأة، وهي المرأة الأولى التي يتم انتخابها للمجلس التشريعي، إلا أنها فرّت إلى الهند مع زوجها المحامي وحملا معاً مبلغاً كبيراً من المال يعود إلى الموكّلين والزبائن. ولم تكن نتائج هذا العمل نافعة لهنود سنغافورة الذين نُظر إليهم وكأنهم طيور مهاجرة.

مع التصويت الهزيل، ضمن لايكوك لنفسه مقعداً في المجلس بين ست مقاعد فاز بها الحزب التقدمي. ذهب مقعدان إلى حزب العمال، والمقعد التاسع لمستقل. هذه الانتخابات كانت تقليداً لما شاهدته في إنجلترا. لايكوك اختار منطقة كاتونغ كدائرة انتخابية له. وهي منطقة تقع على الساحل الشرقي حيث يوجد عدد كبير من متكلمي الإنكليزية الصينيين من سكان المضيق والذين يوالون الملك والامبراطورية. ولما كنت وكيله الانتخابي قمت بتوزيع المتعاونين ليعلقوا ملصقات في الشوارع تحمل صورته واسمه وشعاراً عنوانه (صوتوا لجون لايكوك ـ الحزب التقدمي). طلب مني لايكوك أن أنظم له حفلات ساهرة مع راقصات محترفات

تشاركن الرجال في رقصات (الجوجيت) المالاوية؛ وأن أقدم لهم الطعام والشراب مع أن ذلك كان ضد القانون. كان علي أن أكون متأكداً من أن زعيم المنطقة قد استلم المكافأة المناسبة. لأنه عند عودته إلى جماعته سيحثهم على انتخاب لايكوك. وخلال هذه السهرات كان جون لايكوك يقف على منصة صغيرة وسط المحاضرين حاملاً مكبراً بيده ليبدأ خطاباً باللغة الإنكليزية. ويعد بأنه سوف يجلب الكهرباء والماء لمستمعيه. وقليل من المستمعين كان يفهم لغته. أقام لايكوك أيضاً اجتماعين في (كامبونغ أمبر) وهي منطقة بائسة عشوائية، وقد أصبحت اليوم منطقة سكنية مرموقة ذات أبنية عالية جميلة.

كما كان الحال في انتخابات عام 1948 كان عدد المصوتين في هذه الانتخابات قليلاً أيضاً. بلغ عددهم 24693 من أصل 250000 صوتاً. وبالطبع كان هؤلاء النواب لا يمثلون إلا جزءاً صغيراً من الجموع السكانية. أكثرية السكان ممن يسكنون في الجزءين لم يبالوا بما يجري، عدا عن كون التعليمات الانتخابية كانت كلها باللغة الإنكليزية، والأغلبية كانت تتحدث بالصينية فقط. وكان تقدمهم في النواحي الحياتية محدوداً عند إنهائهم المدارس الصينية، أما تطلعاتهم السياسية فرأوا أنها ممكنة التحقيق عن طريق الحزب الشيوعي المالاوي. هذه الجموع من الناس كانت تتألف من الباعة الجوالين وسائقي العربات الفردية (تريشاو) وسائقي التكسي وباعة الياناصيب غير الشرعي (شاب ـ جي ـ كي) وغير ذلك من الممنوعات. كانوا خليطاً من الناس العاديين الذين لا يظهرون في غرفة الاستقبال الخارجية كمكتب لايكوك، يبحثون عن نجاة من مأزق لهم مع الشرطة أو السلطات المحلية أو الحكومة. ولما كانوا يجهلون اللغة الإنكليزية كان الموظفون المساعدون يقومون بترجمة أقوالهم إلى محامين لا يعرفون لغتهم.

شعرت أن العالم الذي وضعنا فيه الاستعمار كان عالماً سوريالياً. فالمسؤولون يقومون بخدمة أغراضهم الخاصة، وأغراض أولئك الذين تثقفوا ثقافة انكليزية بسبب إمكانهم إثارة ضغوط عليهم عبر الصحف الناطقة بالانكليزية؛ مع أنهم لم

يكونوا المحرك الاقتصادي للمجتمع السينغافوري. كان عندي إحساس عميق بالقلق وعدم الراحة. ناقشت هذه الأفكار مع كيني فقط، فعليّ متابعة تحسين مستقبلي عبر ممارسة القانون، وأن أرى المدى الذي يمكن لهذه الممارسة أن تساعدني في العمل السياسي.

في السابع من آب (أغسطس) 1951 أنهيت مدة العام كمتمرن، واستدعيت مع تشو إلى هيئة المحامين. لبست بزة سوداء وفوقها ثوب المحاماة الموشح بشريط قماشي أبيض، وفي جيبتي كانت القبعة المنشاة القاسية. كان ذلك حدثاً هاماً لأن هيئة المحامين كانت تضم 140 عضواً ولا ينضم إليها سنوياً أكثر من عشرة أعضاء جدد. وقدم رينيه ايبر وهو محامي أوروآسيوي محترم أوراقنا للقبول، مرفقاً ذلك بكلمة لطيفة طيبة. لا بد أن نذكر أن ابنه جون ـ الشيوعي المستتر ـ كان قد اعتقل قبل سبعة أشهر. يا له من عالم صغير، عالم سنغافورة!.

لأن اسمي في شهادة الميلاد كان هاري كيوان يو، لم أرد أن أسقط اسم هاري من سجلات القيود. حاولت ذلك في (ميدل تمبل) وفي جامعة كيمبريدج وجاء اسمي في شهادتيّ الاثنتين من جامعة كيمبريدج التي تشهد علي أني حصلت على إجازة في القانون هاري كيوان يو. قررت عام 1950 أن يكون اسمي في هيئة محامي سنغافورة اسماً صينياً، وأن يوضع اسم العائلة قبل اسمي ليصبح لي كوان يو. هذه المرة نجحت في مساعي وأصبح اسمي الرسمي والمعروف هو لي كوان يو. كان هذا ما يساعدني على تصنيف نفسي كوطني يساري، وهذا ما لاومني فيما بعد في التقارير الصحفية التي علقت على مرافعاتي في المحاكم. ولكن خلال تلك السنوات بقيت زوجتي ـ وبعض أصدقائي الخاصين ينادوني بهاري. وكنت أرى أن هذا يؤثر علي سلبياً من الناحية السياسية. وحتى منتصف الستينيات وبعد مروري بأوقات صعبة استطعت تجاوز آثارها، تمكنت من تجاوز الإحساس بعدم الراحة من ذلك الاسم. وفهمت أن الاسم لا يعني انتقاصاً مني أو من القيم التي أومن بها، فأنا لم أسم نفسي ولم أسم أبنائي بأسماء غربية، كما أنهم لم يسموا أبناءهم بأسماء غربية.

بعد ثلاثة أيام من استدعائي إلى هيئة المحاماة طلب مني صديقي القديم ـ كاتب المحكمة العليا ـ تان ثون ليب، أن أقوم بالدفاع عن أربعة من المالاويين، وهو ما ترك بعد ذلك، أثراً عميقاً في نظرتي إلى نظام المحلفين في المحاكم السنغافورية. في كانون الأول (ديسمبر) 1950 أودعت فتاة هولندية في الدير بأمر من المحكمة العليا بعد أن كانت أمها المالاوية بالتربية قد أدخلتها في الديانة الإسلامية، حتى ينظر القاضي ويقرر حق أمها الطبيعية في إعادتها إلى دينها الأصلي. كانت الأم الطبيعية الهولندية قد أودعت الفتاة عند امرأة مالاوية كي ترعاها بعد أن اجتاح اليابانيون البلاد. وتفجر الموضوع عندما نشرت الصحف صورة الفتاة وهي واقفة أمام تمثال لمريم العذراء. وأثارت هذه الصورة غضب المسلمين الذين اعتبروا أن الفتاة مسلمة مثلهم، وتأججت أعمال الفوضى لعدة أيام، قامت خلالها الجموع الثائرة بقتل الرجال والنساء البيض في الشوارع بدون تمييز.

أما الرجال الأربعة الذين كان علي الدفاع عنهم فهم ضمن مجموعة من 13 شخصاً اتهموا بارتكاب أعمال عنف، أدت إلى مقتل تشارلز جوزف رايان، الضابط في سلاح الجو الملكي. اف. بي. أويهيلرز، المحامي القديم والزميل تولى الدفاع عن التسعة الباقين.

دامت المحاكمة قرابة الأسبوعين، وانعقدت أمام قاضٍ ومحلفين سبعة. وبذلت جهداً في هذه القضية أكبر من جهود أويهيلرز لأن الرجل الخمسيني كان قد رسخ سمعته لدى هيئة المحامين، أما أنا فقد كان علي أن أعمل على تأكيدها. قمت بأكثر المداخلات والاستجوابات والتي يمكن أن تؤدي نتائجها إلى زرع الجهة التي قامت بارتكاب العنف والفوضى والتي تسببت بموت رايان. الحادث وقع مع اقتراب الظلام، فقد قامت بضربه حتى فقد وعيه ومن ثم ألقي في عمق مجرى مياه موسمي في منطقة جيلانغ سيراي المالاوية. تمكنت من نقل القاضي والمحلفين إلى مكان الحدث مساءً حتى أشهدهم على ضعف إنارة الطريق وكثرة

الأمكنة المعتمة فيه وكان سؤالي: كيف يمكن لشخص شهد هذه الحادثة التي اشترك فيها ما بين 40 إلى 50 مالاوياً ومسلماً هندياً، ورغم عدم معرفته المسبقة بهم، ورغم انعدام النور الكافي أن يتأكد من تحديد الأشخاص الذين قاموا بضرب الضحية؟ كم كانت المسافة التي كانت تفصله عن المهاجمين؟ ما هو طول المدة التي رأى فيها موكليي؟ ما نوع الألبسة التي ارتدوها؟ وما هي العلامات الفارقة أو الملامح البارزة التي ارتسمت على وجوههم؟

بعد استجوابنا للشهود، قمت وأويهيلرز بتلاوة مرافعاتنا. بيّنا فيها التناقض الذي وقعت فيه أقوال الشهود، بين ما قالوه في بداية التحقيق، وبين ما قالوه في قاعة المحكمة، ولاسيما فيما يتعلق بسلامة الرؤية في الظلام.

المحلفون الصينيون والهنود كان مثلهم كمثل شخص يقف أمام باب مفتوح وينتظر من يدفعه خلاله. فإدانتهم للمتهمين لم تكن تشعرهم بالرضى لو كانت هذه الإدانة سترسل أحداً إلى الموت. وشعروا بالارتياح عندما برّأوا الجميع من تهمة القتل. ولكن لما كانت هناك أدلة ضاغطة على ضمائرهم فقد وجدوا تسعة من هؤلاء مذنبين لكونهم ساهموا بإرادتهم في إحداث أضرار فادحة. وثلاثة من موكلي سلموا من الإدانة، أما الرابع فقد حُكم خمس سنوات بالسجن المشدد. وارتسمت على وجهي القاضي والنائب العام البريطاني علامات عدم الرضى والتقزز.

وأنا أيضاً لم أكن راضياً عن هذه النتيجة. كان واجبي كمحام أمام المحكمة العليا يتطلب مني أن أبذل ما بوسعي لصالح موكلي بدون أن أزيح عن القانون، أو أن أقدم على تزوير أو افتراء، تجمعت لدي الكثير من الشكوك حول مسار المحكمة والنتيجة المُحبطة التي طالت العدالة، فموكلي الأربعة قاموا بقتل رايان. في تلك الليلة كانوا في قمة الهيجان، وكان ممكن لهم أن يقتلوا كل من يظهر في طريقهم من البيض أو من يمت للبيض بصلة، وكذلك كل من كانت له علاقة بالديانة المسيحية مما كان يعني لهم أنه ضد الاسلام. لم أكن أثق بالنظام الذي

يسمح بالخرافات القائمة على أسس جاهلية، مجحفة، بالإضافة إلى الخوف من قرار سبعة محلفين يمكنهم إيقاع الإدانة أو إقرار البراءة. بينما هم وحسب التصنيف أناس عاديون تلقاهم في الشارع، لا تميزهم صفات خاصة عن غيرهم، عدا عن فهم اللغة الإنكليزية لمتابعة إجراء المحكمة وقوانينها. رأيت المحلفين في المحاكم البريطانية. ولم أقتنع قط بأنهم يستحقون ذلك الإجلال والإشادة بحكمتهم الجماعية والذي يتم وفق طقوس يقوم بها المحامون.

الفرق بين محاكم إنجلترا ومحاكم سنغافورة هو أن الأخيرة كانت بحاجة إلى مترجم. فالكثير من الشهود لم يستطيعوا، أو لم يريدوا التحدث بالانكليزية. ولو كان ذلك لكسب بعض الوقت يعينهم في ترتيب إجاباتهم عن الأسئلة. فالمترجم المالاوي في القضية المذكورة كان مسلماً هندياً غامق اللون، فخم الأداء. كان يستعين في ترجمته بطبقات الصوت، ولغة الجسد، ويعبر عن مزاج الشاهد من أشهر العبارات التي لا ننساها كانت ترجمته لعبارة (الله أكبر) هي على النحو التالي: (إنه يقول إن الرجال صرخوا الله أكبر، يا إلهي، هذه العبارة تعني «الله هو العظيم» وهي أيضاً صرخة الحرب عند المسلمين).

ولكن كانت هناك فوائد أخرى للمترجمين، فعندما ولد لنا أول ابن في يوم الأحد 15 شباط (فبراير) 1952 استشرت واحداً من هؤلاء المترجمين المتواجدين في المحكمة العليا والذي ساعد الكثير من المحامين في إيجاد أسماء صينية لأولادهم. ولما كان تاريخ الولادة يعتبر فالاً حسناً حسب التقويم الصيني ـ اليوم الخامس عشر من أول قمر في عام التنين ـ قررنا لذلك وبعد الاستشارة، أن نسمي ابننا هيسين لونغ ـ (التنين الشهير). كان ابننا يتمتع بطول ممتاز ويزن أكثر من ثماني باوندات، كانت فرحتنا به كبيرة.

وعندما قابلت تشو في مشفى الولادة (كاندانغ كيرباو) بعد أيام، كنت أزف لها الجزء الثاني من طالعي الذي تحقق، والذي كان عملي النقابي الأول. لا شك أن هذا سيجلب لي موقعاً سياسياً ويضعني في صدام وجهاً لوجه مع الحكومة.

7. صداماتي الأولى مع الحكومة

بعد ظهر أحد الأيام من عام 1952 جاءتني مجموعة من ثلاث شبان من المالاويين وهندي واحد في لباس موزعي البريد إلى مكتب (ليكوك وأدنغ) لرؤيتي. قابلتهم في المكتب الخارجي. وكان حاراً وغير مكيف وصاخباً بسبب أصوات الحافلات والباعة المتجولين. أخبرني موظفو البريد الذين كانوا يلبسون ملابس موحدة بأن ثمة ادعاءات ضدهم بشأن الرواتب، ولكن هذه الادعاءات لم تثبت صحتها، وأنه سمح لهم باستشارة محام كي يرافع عنهم. سألت جون لايكوك ما إذا كنت أستطيع أن أتولى القضية؟، لا سيما وأنها ليست قضية كبيرة. فسمح لي بذلك تعبيراً عن النوايا الطيبة. وقبلت بدون أن أطلب منهم الأتعاب القانونية.

هذا القرار بتمثيل موظفي البريد صار بمثابة نقطة تحول في تاريخ النقابات والعمل القانوني. لم أكن أعرف إلا القليل لأنني سأوجه قادة النقابات إلى اضطرابات غيّرت خلال أسبوعين المناخ السياسي. لقد وضعت القضية الحكومية الاستعمارية في موقع الدفاع وشجعت النضال العمالي، ولكنها خلقت في الوقت نفسه ظروفاً شجعت الشيوعيين على إعادة تنظيم تأييد جماهيرهم.

ب. غوفنداسامي موظف بريد (أعلى بدرجة من موزع البريد) لم يكن مثقفاً، ولكنه كان يلخص ما يريد قوله بإنكليزية مناسبة. كان رجلاً جيداً يعتمد عليه انتخب فيما بعد عضواً في البرلمان في دائرة انتخابية قريبة، واهتم بأمري. كنّا مُقدمين على تظاهرة. وفي أحد أيام الآحاد صباحاً عقد الاتحاد اجتماعاً قبل إعلان إضراب في مركز تجمعهم في شارع ماكسويل حيث تعيش أسر كثيرة في شقق من غرفة واحدة ومطابخ ودورات مياه مشتركة. اجتمع معظم أعضاء اتحاد البريد الذي يقارب عددهم 450 شخصاً. كان حضوري لتشجيعهم ولإعادة التأكيد على أن ما يفعلونه ليس غير قانوني، ولا سيما أن الاضرابات ممنوعة في

سنغافورة منذ إعلان حالة الطوارئ عام 1948. وفي سوق المالايو قلت رأيي أمام الجميع، ومعظمهم من المالاويين، والبقية من الصينيين والهنود الذين كانوا مصممين على الإضراب.

وقبل أن يبدأ الإضراب في 13 أيار (مايو) دعاني كينغ سوي الذي عاد من إنكلترة إلى الغداء في (نادي السباحة الصيني) في شارع عنبر كي ألتقي بصحفي من جريدة (سنغافورة ستاندرد) واسمه سيناثامبي راجاراتام. كان مالاوياً من جافنا تاميل. عاش في لندن 12 سنة حتى عام 1947، كان زميلاً لمجموعة من الهنود والأفارقة والبريطانيين اليساريين ويكتب مقالات صحفية معادية للاستعمار كان يجيد الإصغاء. فأوجزت له، ونحن جلوس في الهواء الطلق بجانب بركة السباحة والموسيقى تصدح، الأسباب الكامنة وراء الإضراب. إذ كان ينتظر موضوعاً ساخناً كي يتحدى الحكومة الاستعمارية، وتواقاً لخوض معركة من أجل موظفي البريد.

وفيما كان موظفو البريد يتظاهرون بصورة سلمية في الصباح الأول للإضراب، أرسلت الحكومة مفرزة كبيرة مسلحة من قوات حفظ الأمن (الغوركا) إلى المركز العام للبريد في بناء فولبرتون في منطقة (كولير كواي) التجارية المشهورة، وأعلن نائب رئيس الشرطة أن الشرطة المسلحة ستحمي وترابط أمام جميع مراكز البريد حتى انتهاء الإضراب.

وفي اليوم التالي نشرت الصحف صور (الغوركا) والشرطة، ونشرت إلى جانب ذلك بياناً معتدلاً لرئيس الاتحاد يقول فيه: إن موظفي البريد سوف يمتنعون عن التظاهر حتى تُفهم أهدافهم فهماً واضحاً. والتي جذبت عواطف الجماهير إلى موظفي البريد. وفي اليوم التالي سحبت الحكومة (الغوركا) واستؤنف الإضراب بصورة سلمية.

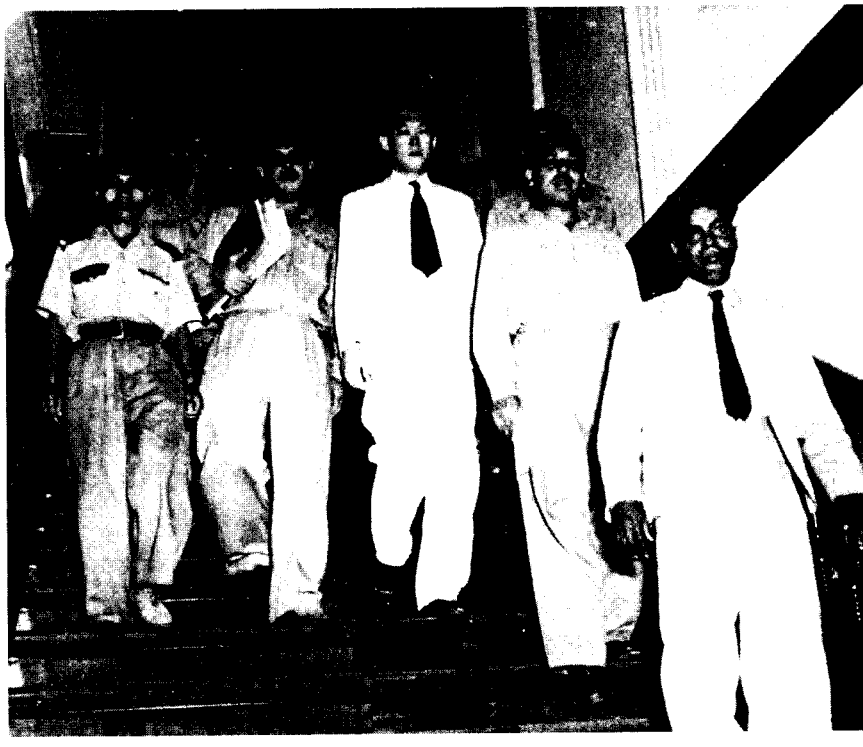

في مقر أمانة سر الحكومة في قصر امبريس، أقود الوفد المفاوض حول الاتصالات البريدية في أيار، 1952 في أقصى اليمين رئيس مكتب البريد ب. جوفيندا سامي الذي أصبح فيما بعد عضواً في البرلمان.

كانت صحيفة (سنغافورة ستاندرد) صحيفة محلية محدودة التوزيع بالمقارنة مع صحيفة (ستريت تايمز) الموالية لبريطانيا، ولكن صوتها ارتفع عالياً في هذا الصراع. وقد قرأها كثير من القراء المحليين، كما اضطر بعض الضباط البريطانيين إلى قراءتها أيضاً. وفي المقالة الافتتاحية تهكم، وأجاب بسخرية من الانحياز العنصري للحكومة الاستعمارية متسائلاً عن حق المغتربين البريطانيين في تلقي رواتب أعلى من الموظفين المحليين، فهم يتقاضون ألف دولار شهرياً، في حين رفضت الحكومة منح الموظفين المحليين زيادة مقدارها 10 دولارات في الشهر.

في غضون ذلك تراكم البريد وهذا ما أقلق الجميع. كان على المواطنين أن ينقلوا رسائلهم وبريدهم بأنفسهم. ومع هذا فقد كان الجمهور متعاطفاً مع موظفي البريد بسبب تصرفاتهم المعتدلة والبيانات التي كنت أكتبها لهم. كما ساعدت عناوين ومقالات صحيفة (سنغافورة ستاندارد) كثيراً. كما ساندت صحيفة (أوتوسان ميلايو) المُضربين، لأن معظمهم كان من المالاويين. كذلك فعلت الصحف اليومية الصينية، مثل (نانيانغ سيانغ باو) و(سين تشيو جيت بوه) حيث إن معظم محرريها من الشيوعيين الذين يعارضون الحكومة دوماً.

صحيفة (ستريتس تايمز) من جهة أخرى، كان يملكها ويديرها البريطانيون. وكان لديها كاتب افتتاحيات ماهر، هو الينغتون كينارد، الذي حاول أن يكون محايداً، ولكن من الصعب عليه ألا يوالي الحكومة. كان راجا يتمتع بالمعركة، كانت حملة عنيفة بكل معنى الكلمة ـ نضال من جانب الجماهير المسحوقة ضد عصبة لا تعرف الشفقة من المستعمرين المستغلين البيض، أما أسلوبه الساخر فكان شديداً. فالسنوات الطويلة من التعامل مع الهنود والهنود الغربيين المعادين للامبريالية قد أعطته خبرة كبيرة. وكنا نشكل معاً ثنائياً متناقضاً: راجا قوي وجريء، وأنا مجامل، كنت أخابره لتقديم اقتراحات، أو للتشاور حول ردود أفعال

المؤيدين، وقد كان يراجع افتتاحياته معي قبل نشرها. واستطاعت (سنغافورة ستاندرد) أن تثبت أقوالها، أما أنا فقد كنت أنشر رسائلي في (ستريتس تايمز) كي نحافظ على مظهر عدم التحيز.

وفي نهاية الأسبوع الأول انقلب الرأي العام بقوة ضد الحكومة. لم يكن ضباط الاستعمار البريطاني معتادين على عرض قضيتهم من أجل أن يكسبوا الرأي العام، أو التعامل مع المحليين الذين يظهرون بدأب تناقضهم وضعفهم. فالتعامل القاسي الذي أظهره ضباط الحكومة مع رجال البريد حرك الاتحادات الأخرى لدعمهم. حتى الأمين العام لمجلس نقابات سنغافورة، والذي كان مقرباً ومتعاوناً مع ليم يوهوك، وعضو (اللجنة التنفيذية لحزب عمال سنغافورة) انضم إلى التيار السائد. وأعلن عن تأسيس صندوقٍ (لمساعدة موظفي البريد من أجل الاستمرار في إضرابهم حتى يحققوا النجاح) ودعت صحيفة (سنغافورة ستاندارد) إلى تبرع الجمهور وجمع التبرعات من المتبرعين.

أسقط في يد الحكومة. ودعا أمين سر السلطة الاستعمارية إلى (استئناف المفاوضات حالما يعود المستخدمون إلى عملهم). أجبت أن العمال إذا أوقفوا إضرابهم. ثم أخفقت المفاوضات ثانية، فسوف يواجهون احتمال إضراب آخر. (هذا العمل إذا تكرر عدة مرات من شأنه أن يضعف الإضراب ويؤدي إلى إفلاس سلاح الاتحاد الأخير في المساومة الجماعية).

وفي اجتماع المجلس التشريعي الذي انعقد يوم الأربعاء، 20 أيار (مايو) حذر الحاكم نفسه عمال البريد بأن الحكومة لن تقبل عن طريق الإضراب الانصياع إلى جميع مطالبهم. وفي اليوم التالي كتب راجا في صحيفة (سنغافورة ستاندارد):

«لأول مرة في تاريخ الحركة النقابية في هذه البلاد، يشك المسؤول الأول في المستعمرة علانية بشرعية سلاح الإضراب. والأكثر من ذلك أن السيد نيكول (الحاكم) يقول: إن الحكومة ستمارس الضغط خلال الإضرابات سواء أكانت مبررة أم لا، مشروعة أو غير مشروعة، كأمر لا يمكن للحكومة أن تتساهل فيه».

أثار التصريح الاستياء. وشعر المسؤولون البريطانيون بالإحراج والضعف تجاه تحول الأحداث. فقد أصيبوا بصفعة أمام الجمهور. ورد أمين عام المستعمرة بوعد موظفي البريد والبرق المضربين، بأنه هو نفسه الذي سيدير المفاوضات مع ممثلي اتحادهم، إذا ما عادوا إلى العمل. مما حفّز قادة الاتحاد على اتخاذ موقف جديد وأعلنت أن الإضراب سيُعلّق لمدة ثلاثة أيام. حفظ هذا الاقتراح ماء وجه أمين سر المستعمرة وموظفيه. واستؤنفت المفاوضات في 26 أيار (مايو) وانتهت باتفاقية مرضية.

كان ذلك أول إضراب منذ فرض (إجراءات الطوارئ) في حزيران 1948، وقد تم في إطار القانون تماماً، بدون تهديدات أو عنف أو أعمال فوضوية. كان النضال من أجل الحصول على التأييد الشعبي وقد فاز الاتحاد في معركته. وبعد هذا الاستعراض لعجز موظفي الاستعمار البريطاني اكتشف الشعب أن الحكومة هشة عندما تتعرض للامتحان. وعزز ما نشرته الصحافة ووسائل الإعلام مكانتي المهنية. فلم أعد مجرد محامٍ صغير عائد من كيمبريدج بشهادات أكاديمية مشرفة. بل قدت العمال المضربين، وتحدثت باسمهم وكنت موضع ثقتهم. فاوضت بدون تساهل ولا ضعف. وكسبت إلى حد كبير تقدير آلاف العمال في سنغافورة والملايو. وبدون أن أثير خشية الطبقة ذات الثقافة الإنكليزية. ونستطيع أن نوسعها بالجهد السياسي الذي كنا نسعى إليه عندما كنا نناقش خطط عملنا أثناء الأمسيات التي كنا نمضيها في الحديث وشرب الجعة في لندن بعد اجتماعاتنا في قاعة الملايو لقد وجدنا الطريق لحشد تأييد الجماهير.

تشجعت الجماعات غير الشيوعية واشتد عودها بهذا الاستعراض وبهذا العمل الدستوري، السلمي، غير العنيف لإحقاق الحقوق المشروعة. وقد طلبت مني عدة نقابات واتحادات أن أكون مستشاراً حقوقياً لها، وكنت سعيداً بالتعاون معهم كمؤيدين سياسيين محتملين. ودفع معظمهم نفقات لـ: ليكوك وأونغ من أجل وضع اسمي على رأس رسائلهم بصفتي مستشاراً حقوقياً لهم. كما حضرت كثيراً

من دعوات العشاء ودعوات الاجتماعات العامة التي كانوا يوجهونها إلي. وتعلمت أن أختلط بكثير من الجماعات الصينية، التي يتحدث بعضها اللغة الكانتونية أو لغة الماندرين مثل (اتحاد عمال الطباعة الصيني) وبعضها يتحدث اللهجة المحلية فقط مثل (اتحاد هاكا) في سنغافورة. كان الأمر محرجاً لي غالباً لأن لغتي الصينية ضعيفة للغاية. وكنت أشعر بالخجل لعدم قدرتي على التواصل معهم بلغة يفترض أنها لغتي القومية. ومرة أخرى بدأت أبذل جهدي لتعلم لغة الماندرين.

فحصلت على مُدرس، وعلى مسجلة صغيرة، واشتركت مع شخص في تلقي الدروس حيث كنا نلتقي في مكتب المدرس الحكومي في شارع كانتومنت. ولكن التقدم كان بطيئاً (مع الأسف). فلم يكن لدي سوى القليل من الوقت، ومن الفرص لممارسة اللغة. لم أكن بحاجة إلى لغة الماندرين على أية حال عند انهماكي الواسع المقبل في العمل الصناعي، ففي كانون الأول (ديسمبر) من عام 1952أضرب الأعضاء الهنود الرئيسيون في اتحاد (القاعدة البحرية العمالي) وفي التاسع والعشرين من كانون الأول أضرب العمال في قاعدة سيمبا وانغ بسبب عدم رضاهم عن الضباط البحريين المسؤولين عنهم وعن الحكومة السنغافورية. وتعطلت سفن البحرية الملكية التي وصلت إلى سنغافورة من الحرب في كوريا - حاملة طائرات وطائرتان مقاتلتان وغواصة لأنها كانت بحاجة إلى إصلاح. تدخل الحاكم، ولكن بعد اجتماعين غير مثمرين، وافق ممثلوا الطرفين إلى إحالة النزاع على مُحكّم مستقل. هو جون كاميرون، مستشار الملكة من (المحكمة الاسكتلندية) وطلب مني الاتحاد أن أعرض قضيته.

أمضيت بضعة أسابيع أدرس معدلات الرواتب وأجري المقارنات ما بين رواتب الحكومة والأدميرالية السنغافورية للعاملين لديها في أعمال مماثلة. وكانت المرافعات في غرفة (مكتب التسجيل التابع للمحكمة العليا) واستمرت لمدة أسبوع في شهر شباط (فبراير) عام 1953. وكان كاميرون محامياً اسكتلندياً ناضجاً عمل في جو من النزاهة وعدم الانحياز. وكان لدى الأدميرالية رجل خبير ممن

يعرف أن معدلات الرواتب لديهم متدنية. وعندما ألقى كاميرون مرافعته في 11 آذار (مارس) كان من الواضح أنه يعرف حدود ميزانية الأدميرالية، ولم يكن يرغب في أن يخرقها. ضغطت من جانبي على فكرة المساواة مع معدل ما تدفعه حكومة سنغافورة، ولكن كاميرون رفض ذلك.

أصيب المسؤولون في النقابة بخيبة أمل، وكان الرئيس واقعاً تحت ضغط رفض الحكم. اجتمعت مع المسؤولين وقلت بإلحاح إنه لن يكون من الحكمة استئناف الإضراب بعد أن قبلوا بمبدأ التحكيم كوسيلة للتسوية، وكان هذا جزءاً لا يتجزأ من النضال الدستوري. انتصر رأيي ولم يكن الوضع سيئاً لي. على الرغم من أنني خسرت بعض التشجيع لعدم حصولي إلا على تنازلات يسيرة، فقد أثبت نفسي كمستشارٍ قانونيٍ يعرف القواعد ويحسن المداورة. مستعدٌ لتقديم النصح لزبوني (الاتحاد) بالقبول بحكم ليس في صالحهم.

كانت تجري إضرابات أخرى في سنغافورة والملايو. فقد أعلن كُتّاب (اتحاد سنغافورة لعمال البريد والاتصالات الهاتفية) أنهم سيضربون في 23 آذار (مارس) 1953 من أجل زيادة رواتبهم. وكان ذلك أول إضراب يأتي من جانب عمال يعملون في الحكومة. طلب مني الاتحاد أن أكون مستشاره القانوني. عرضت الحكومة التحكيم، وبعد مناقشات بيني وبين الاتحاد وافق الأخير. ووضعت الحكومة أسماء ستة أعضاء من هيئة المحلفين، وكان أحدهم يونغ بونغ هاو، زميلي في (مدرسة كيمبريدج للحقوق).

وعلى مدى ثلاثة أيام حظيت الوقائع باهتمام كبير في الصحافة والإذاعة. كان أمامي هدفان: أن أحصل على حكم جديد، والأهم من ذلك أن أكشف الطريقة الاعتباطية والتي لا تتسم بالكفاءة التي يتعامل بها موظفو الإدارة الاستعمارية البريطانيون مع الموظفين الحكوميين المحليين. وقد قمت بهذا بدون إبداء عدوانية. عرض يونغ هاو أن يُدفع للعمال الألف رواتب 28 شهراً إضافية مع زيادات أخرى تصل إلى مليون دولار. وقد أعادت هذه النتيجة مكانتي لدى العمال وعززت موقفي.

في تلك الأثناء كان كبار موظفي الحكومة المحليين يتململون. فقد اشتكى كيني من العرض غير العادل بإعطاء تعويضات عائلية خاصة للموظفين المغتربين فقط. وكان (اتحاد كبار موظفي سنغافورة) قد كرر مطالبه بهذا الشأن دون جدوى. وعندما عاد كينغ سوي من لندن في نهاية 1951، أوجد استراتيجية بسيطة تعطيهم قدرة سياسية على مناقشة الحكومة. بدلاً من الاختلاف على التعويضات العائلية، بالمقارنة مع تعويضات الاغتراب، بالنسبة لأقل من 200 موظف رفيع المرتبة، اقترح كينغ سوي أن يطالبوا بتعويضات نسبية لجميع موظفي الحكومة، ولاسيما ذوي الرواتب الضئيلة والرواتب اليومية. فمنذ عام 1945 تراجعت أجور الموظفين لدى الحكومة تجاه التضخم. وبعد أن أظهر إضراب عمال البريد ما يمكن أن يضعه التعاون الجماعي دستوراً، بات العمال المياومون تواقين للعمل الجماعي.

وفي تموز (يوليو) 1952 ساعد كينغ سوي كيني على تشكيل (مجلس للعمل المشترك) تمثل جميع نقابات واتحادات الحكومة والتي يصل عدد أعضائها إلى حوالي 14 ألف شخص. وطالب هؤلاء بعلاوات عائلية. وفي اجتماع جماهيري عقد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تحول العمال إلى العنف للتعبير عن استيائهم من جراء التفرقة العنصرية تجاه الموظفين المحليين. وتساءل إعلانهم: (هل هذه عدالة؟ فالأوربيون لديهم عائلات صغيرة وعلاوات كبيرة. ونحن لدينا عائلات كبيرة ولا نتقاضى أية علاوات).

شعر الأعضاء المنتخبون في (المجلس التشريعي) أن ثمة فائدة سياسية كبيرة من مساندة مطالب العلاوات العائلية للموظفين المحليين، ولاسيما ذوي الرواتب الضئيلة، وبدأوا يدعمون مطالبهم في (المجلس التشريعي). لم يكن الحاكم سيرجون نيكول، الذي يترأس (المجلس) مرتاحاً لسير الأمور. ونصح الأعضاء بالانضباط، وحذّر الموظفين المدنيين قائلاً: «لا تستطيعون أن تضغطوا على أعضاء المجلس».

نفى «مجلس العمل المشترك» أنه اتصل بالمستشارين التشريعيين طلباً للمساعدة، ولكنه تساءل ما إذا كان أعضاؤه، كمواطنين وموظفين، ليس لديهم الحق لمناقشة الأمور المبدئية مع ممثليهم المنتخبين. وكتبت اتحادات «موظفي اتحاد سنغافورة» إلى الأمين العام للإدارة الاستعمارية للتعبير عن «عدم الثقة العميق الذي يشعر به جميع الموظفين المحليين تجاه الموظفين الغرباء في الحكومة».

بعد أن جوبه بمقاومة متزايدة وموقف ثوري يدعو للدهشة من موظفي حكومته سعى الحاكم إلى امتصاص السخط المتصاعد بتعيين لجنة حكومية تحت رئاسة رجل اقتصاد معرف، هو ف. سي. بينهام (للتحقيق فيما إذا كانت الأجور الحالية للموظفين المحليين ملائمة). وبعد ثلاثة أيام من الاستشارات، وافقت اللجنة مع الاتحادات على أنه ينبغي أن يتقاضوا التعويضات العائلية. الأمر الذي رَوّع الحاكم. فهذا من شأنه أن يمتص جزءاً كبيراً من الميزانية. وعندما رفض التقرير، هددت ست اتحادات بالإضراب. ولتفادي الإضرابات وعد الحاكم بتشكيل لجنة مستقلة برئاسة السيد إدوارد ريستون. وفي آذار (مارس) عام 1953 أوصى ريستون بإلغاء التعويضات العائلية للمغتربين. هز (مجلس العمل المشترك) النظام الاستعماري. فبعد 10 أشهر من المفاوضات المستمرة وافقت الحكومة على سلّم للرواتب يعطي زيادات أكبر لذوي الرواتب الأعلى أكثر من رواتب موظفي الحكومة الأدنى أو المتوسطين. وهكذا حرمت الحكومة الاستعمارية كينغ سوي وكيني من رصيدهما السياسي لدى العاملين البسطاء الذي سعوا إليه.